الفصل الخامس والثلاثون

الأدب فى عصر رابليـــه

١٥١٧ — ٦٤

١ — فى صناعة الكتب

اتخذ حافز الإعلان عن النفس صورة جديدة بعد جوتنبرج : هى رغبة الكتاب الملحة فى طبع مؤلفاتهم . على أن هذا الحافز كان غالى الثمن ، لأن حق التأليف الوحيد المعروف آنئذ كان « الامتياز الخاص » الذى تمنحه السلطات المدنية أو الكنسية لطبع كتاب بعينه ، وهو منحة استثنائية ، بدونها كان فى استطاعة الناشرين المتنافسين ، حتى فى البلد الواحد ، أن يسطوا على أى أثر حين يشاءون ، وكان الناشر عادة — إذا راج الكتاب الذى ينشره — ينقد المؤلف أتعاباً ، ولكن المطبوعات الوحيدة تقريباً التى غلت من الربح ما يكفى لحصول المؤلف على أتعابه هى الروايات الشعبية ، وقصص السحر أو المعجزات ، والنشرات الجدلية التى كان شرط رواجها أن تحشى بالمطاعن . أما الكتب العلمية والثقافية فكانت محظوظة إن غطت نفقاتها . وكان الناشرون يشجعون المؤلفين على إهداء هذه الآثار إلى كبار رجال الدولة أو الكنيسة أو إلى أثرياء الأعيان والأشراف بأمل الحصول على منحة لقاء هذه الزُّلفى .

واجتمعت الطباعة والنشر عادة فى بيت واحدٍ . وكان الرجل أو الأسرة المشتغلان بهما عنصراً حيوياً فى مدينتهما وجيلهما . أما الشهرة عن طريق الطباعة وحدها فقط فكانت نادرة ، وقد أفلح كاود جرامون الباريسى

فى إحرازها بنبذه حرف الطباعة « القوطى » الذى اتخذه الطباعون الألمان نقلا عن حروف المخطوطات ، وبتصميمه حرف طباعة « رومانياً» (حوالى ١٥٤٠) مبنيا على خط الكتابة الكارولنجى الصغير المنتشر فى القرن التاسع كما طوره الإنسانيون الإيطاليون والمطبعة الألدية : واختار الطباعون الفرنسيون والإنجليز هذا الحرف الرومانى ، أما الألمان فقد تمسكوا بالحرف القوطى حتى القرن التاسع عشر . وما زالت أنماط من حروف الطبع تحمل اسم جرامون .

وتزعمت ألمانيا العالم فى ميدان النشر . فقامت بيوت نشر نشيطة فى بازل وستراسبورج وأوجزبورج ونورمبرج وفتنبرج وكولونيا وليبزج وفرانكفورت ومجدبورج ؛ وكان الناشرون وتجار الكتب يلتقون مرتين كل عام فى سوق فرانكفورت ، فيشترون الكتب ويبيعونها ويتبادلون الأفكار . وأصدر طباع فرانكفورتى أول جريدة (١٥٤٨) — وكانت ورقة توزع فى السوق وتروى آخر الأحداث . وأصبحت أنتورب مركزاً للنشر حين عمد كرستوفر بلانتن إلى دكان التجليد الذى يملكه فحوله إلى مطبعة (١٥٥٥) ، وبعد عامين أرسل ١٢٠٠ مجلد إلى سوق فرانكفورت . أما فى فرنسا فكانت ليون مركزاً لصناعة الكتاب ، وأتاحت لها مائتان من مؤسسات الطباعة أن تتحدى باريس بوصفها العاصمة الفكرية للبلاد .

وكان إتيين دوليه الطباع والأديب الإنسانى شعلة ليون المتأججة بالثورة . ولد فى أورليان . وتلقى علومه فى باريس . ثم أولع بشيشرون . « إننى لا أستحسن سوى المسيح وتللى » . ولما سمع بأن الكفر يحظى بحرية غير عادية فى بادوا سارع إليها ، وهناك تبادل الشعر الساخر البذىء مع الشكاكين من المتأثرين بفلسفة ابن رشد : وفى تولوز أصبح الروح المحركة لجماعة حرة التفكير تهزأ بالبابويين واللوثريين على حد سواء . فلما نفى

قصد ليون وفيها اكتسب سمعة بكتابة الأشعار والمقالات . ولكنه قتل طباعاً أثناء احتدام الجدل بينهما ، ففر إلى باريس حيث حصلت له مارجريت النافارية على عفو من الملك . وهناك صادق مارو ورابليه . ثم تشاجر معهما . ولما عاد إلى ليون أنشأ مطبعة وتخصص فى نشر الكتب المهرطقة ، واستدعته محكمة التفتيش ، وحاكمته وسجنته ، فهرب من السجن ، ولكن قبض عليه أثناء زيارته ابنه خفية ، وفى ٣ أغسطس ١٥٤٦ أحرق حياً .

أما أبرز الناشرين الفرنسيين فكانوا آل إتيين ، وهم أسرة ثابرت على الطباعة مثابرة آل فوجير على التمويل . بدأ هنرى إتيين مطبعته فى باريس حوالى ١٥٠٠ ، وواصل العمل من بعده أبناؤه فرانسوا وروبير وشارل ، وإلى هؤلاء الأربعة تدين فرنسا بأفخر طبعاتها الآداب اليونانية واللاتينية . وصنف روبير قاموساً للغة اللاتينية (١٥٣٢) أصبح سنداً أساسياً لجميع القواميس اللاتينية الفرنسية التالية له . وغدت اللاتينية لغة ثانية لآل إتيين يتكلمونها بانتظام داخل الأسرة . وامتدح فرانسوا الأول عملهم وأيد مارجريت فى الدفاع عنهم ضد السوربون ، وحضر فى إحدى المناسبات اجتماعاً الفيف من الأدباء التقوا فى حانوت روبير . وفى رواية مشهورة أن الملك ظل ينتظر فى صبر ريثما يفرغ روبير من تصحيح تجربة طباعة عاجلة . وقدم فرانسوا المال الذى أتاح لروبير تكليف جرامون بتصميم وصب طقم طباعة جديدا للحروف اليونانية فيه من الجمال ما جعله نموذجاً لمعظم الطباعة اليونانية التالية . واستنكرت السوربون تلهى الملك بالثقافة الهيلينية ، وقال أحد أساتذتها يحذر « البرلمان » (١٥٣٩) « ان نشر معرفة اليونانية والعبرية سيعمل على تدمير الدين كله » . أما العبرية فكان رأى أحد الرهبان فيها « أنه من المعلوم جيداً أن كل من تعلموا العبرية أصبحوا من فورهم يهوداً . »(١) ولما لاحقت السوربون روبير وأرهقته طوال ثلاثين عاماً نقل مطبعته إلى

جنيف (١٥٥٢) وهناك أماط اللثام سنة وفاته (١٥٥٩) عن ميوله البروتستنتية بنشره طبعة من « مبادىء كالفن » . واحتفظ ابنه هنرى إتيين الثانى بسمعة الأسرة إذ أصدر فى باريس طبعات جميلة من الآداب القديمة ، وصنف معجماً للغة اليونانية (١٥٧٢) فى خمسة مجلدات لا تزال إلى يومنا أكمل المعاجم اليونانية قاطبة . غير أنه أثار حقد السوربون عليه بنشره كتاباً سماه « دفاع عن هيرودوت » (١٥٦٦) أشار فيه إلى النظائر من المعجزات المسيحية والعجائب الغريبة التى رواها المؤرخ اليونانى ولجأ هو الآخر إلى جنيف ، ولكنه وجد نظام الحكم الكالفنى لا يقل تعصباً عن السوربون .

وكثير من مطبوعات هذا العصر نماذج تحتذى فى الطبع والحفر والتجليد ، فقد حل محل الأغلفة نصف المعدنية ، الثقيلة ، الشائعة فى القرن الخامس عشر ، أغلفة أخف وزناً وأرخص ثمناً مصنوعة من الجلد أو الورق المتين أو الرق . ومن أمثلة هذا التقدم أن جان جروليه دسير فيير ، وزير مالية فرنسا فى ١٥٣٤ ، كلف المجلدين بتجليد كتبه البالغ عددها ٣,٠٠٠ بجلد الماعز المشرق تجليداً بلغ من الأناقة حداً يضعها فى صف أجمل الكتب إطلاقاً . وغدت المكتبات الخاصة الآن لا حصر لها ، وفتحت المكتبات العامة فى كثير من المدن — مثل كركاو (١٥١٧) ، وهامبورج (١٥٢٩) ، ونورمبرج (١٥٣٨) ، وفى عهد فرانسوا الأول نقلت المكتبة الملكية القديمة التى جمعها شارل الثامن من اللوفر إلى فونتنبلو ، وأثراها مجموعات جديدة من الكتب وأغلفة فاخرة ، وأصبحت هذه « المكتبة الملكية » بعد الثورة الفرنسية « المكتبة الأهلية » . وقد دمر كثير من المكتبات الديرية فى حركة الإصلاح البروتستنتى ، ولكن الكثير منها انتقل إلى أيدى الأفراد ووجد كل ثمين فيها طريقه إلى دور الكتب العامة . لقد ضاع فى التاريخ الكثير . ولكن احتفظ بالكثير جداً مما له قيمته وليس فى استطاعة فرد ولو أوتى مائة عمر أن يستوعبه .

٢ — المدارس

كان من الطبيعى أن تعمد الثورة الفرنسية حيناً إلى تمزيق نظام غرب أوربا التعليمى لأنه جلّه كان خدمة تابعة للكنيسة ، ولم يكن فى الإمكان تحدى نفوذ رجال الدين التقليديين بنجاح ما لم تحطم هيمنتهم على التعليم . وقد أنحى لوثر باللوم على مدارس ذلك العهد الثانوية التى تركز على تعليم اللغات القديمة ، وقال إنها تعلم الطالب « من اللاتينية الرديئة ما يكفى لإعداده قسيساً وتمكينه من تلاوة القداس . . . ومع ذلك يظل طوال حياته جهولا مسكيناً لا يصلح لشىء »(٢) . أما الجامعات فبدت له مغارات للقتلة ، وهياكل للإله ملخ ، ومجامع للفساد « لم يظهر على الأرض . . . ولن يظهر . . . ما هو شر منها . » وخلص من هذا إلى أنها « لا تصلح إلا لهدمها وتسويتها بالتراب »(٣) . واتفق ملانكتون مع لوثر فى الرأى ، لأن الجامعات تحول طلابها إلى الوثنية(٤) . وتقبل الآباء الذين يضنون بنفقات تعليم أبنائهم ، رأى كارلشتات ، و« أنبياء » زفيكالو ، والقائلين بتجديد المعمودية ، فى غير تردد — وهو أن التعليم زخرف لا غناء فيه ، وخطر على الأخلاق ، ومعوق للخلاص . وكانت حجة بعض الآباء أنه ما دام التعليم الثانوى موجهاً إلى حد كبير لإعداد الطلاب ليكونوا قساوسة ، وما دامت هذه المهنة قد بارت سوقها ، إذن فليس من المنطق أن يبعثوا بأبنائهم إلى الجامعات .

كان دعاة الإصلاح البروتستنتى يتوقعون أن يفرد جانب من دخل الأملاك الكنسية التى استولت عليها الدولة لإنشاء مدارس جديدة تحل محل تلك الآخذة فى الزوال عقب إغلاق الأديار . ولكن « الأمراء والأشراف » على حد قول لوثر « شغلوا بشئون عالية وهامة — شئون كهف الخمور والمطبخ والمخدع — فلم يعد لديهم متسع من الوقت » لمد يد المعونة إلى التعليم . وكتب يقول فى ١٥٢٤ « إن المدارس فى الولايات الألمانية تترك الآن فى كل مكان لتصبح خراباً يباباً »(٥) . وما وافى عام ١٥٣٠

حتى كان هو وملانكتون يرثيان ما أصاب الجامعات الألمانية من تدهور وانحلال(٦) . ففى إرفورت هبط عدد الملتحقين بالجامعة من ٣١١ فى عام ١٥٢٠ إلى ١٢٠ فى عام ١٥٢١ ، وإلى ٣٤ فى عام ١٥٢٤ ، وفى روستوك هبط العدد من ٣٠٠ فى عام ١٥١٧ إلى ١٥ فى عام ١٥٢٥ ، وفى هيدلبرج كان فى ذلك العام من الأساتذة عدد أكثر ممن كان فيها من الطلاب . وفى ١٥٢٦ لم يلتحق بجامعة بال سوى خمسة طلاب(٧) .

وجاهد لوثر وملانكتون لإصلاح ما فسد : فناشد لوثر فى « رسالته إلى العمد » (١٥٢٤) السلطات الزمنية أن تنشئ المدارس . وفى عام ١٥٣٠ تخطى زمانه بكثير فاقترح أن يقرر التعليم الأولى إجبارياً وأن يوفر للأطفال على حساب الدولة(٨) . أما الجامعات التى أعيد تأسيسها تدريجياً تحت الرعاية البروتستنتية فقد أوصى ببرنامج دراسة لها يتركز حول الكتاب المقدس . ولكنه يحوى أيضاً تعليم اللاتينية واليونانية والعبرية والألمانية والقانون والطب والتاريخ و « الشعراء والخطباء . . . الوثنيين منهم أو المسيحيين(٩) » . أما ملانكتون فقد جعل من إحياء التعليم مهمته الأولى . ففتح الكثير من المدارس تحت قيادته وبتشجيعه . وما وافت نهاية القرن السادس عشر حتى أصبح فى ألمانيا ٣٠٠ مدرسة . ثم وضع « خطة مدرسية » (١٥٢٧) لتنظيم المدارس والجامعات . وألف كتباً مدرسية فى النحو اللاتينى واليونانى ، وفى البيان والمنطق وعلم النفس والأخلاق واللاهوت . ودرب آلاف الطلاب على الاضطلاع بالتعليم فى المعاهد الجديدة . وقد لقبه وطنه بمعلم ألمانيا اعترافاً بجميله . وانتقلت جامعات شمالى ألمانيا الواحدة تلو الأخرى إلى أيدى بروتستنتية : فتنبرج (١٥٢٢) ، ومار بورج (١٥٢٧) ، وتوبنجن (١٥٣٥) ، وليبزج (١٥٣٩) وكونجزبرج (١٥٤٤) ، وينا (١٥٥٨) . وطرد الأساتذة أو الطلاب المعارضون « للعقيدة الإنجيلية الصادقة الصحيحة » كما قال أولريش دوق فورتمبرج . ومنع الكالفنيون من دخول الكليات اللوثرية . والبروتستنت من دخول الجامعات التى لم تزل فى أيدى الكاثوليك . ويمكن القول بصفة

عامة إنه بعد صلح أوجزيورج (١٥٥٥) حرم على الطلبة الألمان أن يختلفوا إلى المدارس التابعة لمذهب آخر غير الذى يدين به أمير المقاطعة(١٠) .

.هذا وقد أتيح للتعليم الجديد أن يحرز تقدماً هائلا على يد يوهان شتروم حين أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » فى ستراسبورج (١٥٣٨) ، ونشر فى ذلك العام نبذة كان لها نفوذ كبير عنوانها « فى فتح مدارس الآداب بالطريقة الصحيحة » . وكان ككثيرين غيره من زعماء الفكر فى وسط أوربا قد تلقى علومه على يد « إخوان الحياة المشتركة » . ثم قصد لوفان وباريس حيث التقى برابليه . ولعل رسالة جارجانتوا الشهيرة فى التعليم صدى لتأثير الرجلين المتبادل . ومع أن شتروم يرى فى « التقوى المقترنة بالحكمة » الهدف الأول للتعليم ، فانه أكد تأكيداً متزايداً أهمية دراسة اليونانية واللاتينية وآدابهما . وقد انتقلت هذه العناية والدقة فى تعليم الآداب القديمة إلى مدارس ألمانيا الثانوية التالية ، فربت جيش العلماء والأدباء الذى غزا العالم القديم وقتله بحثاً وتنقيباً فى القرن التاسع عشر .

أما مدارس إنجلترة فقد قاست أكثر حتى من مدارس ألمانيا نتيجة للثورة الدينية . وذابت مدارس الكاتدرائيات والأديار والنقابات والأوقاف فى لهيب الهجوم على رذائل الكنيسة وتراثها. وكان أكثر طلاب الجامعات يفدون إليها من هذه المدارس . فلما توقف هذا السيل لم تخرج أكسفورد سوى ١٧٣ من حملة بكالوريوس الآداب . وكمبردج سوى ١٩١ فى عام ١٥٤٨ ، وفى عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٠ لم تخرج أكسفورد منهم أحداً .(١١) وأحس هنرى الثامن بالمشكلة ، ولكن حاجته إلى المال للحرب أو لزيجاته العديدة حدت من قدرته ، فاكتفى بانشاء كلية ترنتى بكمبردج (١٥٤٦) وبتمويل كراس بمنح ملكية فى اللاهوت ، والعبرية واليونانية ، والطب ، والقانون . وفى هذه الفترة قامت الهيئات الخاصة الخيرية بانشاء كلية كوربس كرستى ، وكلية كرايست تشيرش ، وكلية سانت جون ، وكلية ترنتى

بأكسفورد ، وكلية ماجدلين بكمبردج . وقامت اللجنة الملكية التى أوفدها كرومويل إلى أكسفورد وكمبردج (١٥٣٥) لتستولى للملك على براءاتهما وأوقافهما باخضاع الكلية والمنهج للاشراف الحكومى . وهكذا قضى بضربة عاجلة على سلطان الفلسفة الكلامية فى إنجلترة ، وذرت فى الريح — حقيقة لا مجازاً — أعمال دنزسكوتس[١٢] ، ونحى القانون الكنسى جانباً ، وشجعت الدراسات اليونانية واللاتينية ، وصبغ المنهج بالصبغة العلمانية إلى حد كبير — ولكن الدجماطيقية لم تمت . فقد اشترط قانون صدر فى ١٥٥٣ على جميع طلاب الدرجات الجامعية أن يتعهدوا كتابة بقبول « مواد الدين الانجليكانية » .

أما فى فرنسا وفلاندر الكاثوليكيتين فقد تدهورت الجامعات لا من حيث أوقافها وعدد طلابها ، بل من حيث قوة الحياة الفكرية وحريتها . وفتحت جامعات جديدة فى رامس ودواى وليل وبيزانسون . ونافست جامعة لوفان جامعة باريس فى عدد الطلاب (٥٠٠٠) ، وفى الدفاع عن لون من الكاثوليكية التقليدية بدا متطرفاً حتى فى نظر البابوات . وكان طلاب جامعة باريس كثيرين (٦٠٠٠) ، ولكنها لم تعد تجتذب أى عدد مذكور من الطلاب الأجانب أو تتسامح كما كانت تفعل إبان عنفوانها فى القرن الثالث عشر مع خميرة الأفكار الجديدة المنشطة . أما كلياتها فسيطرت عليها كلية اللاهوت — السوربون — حتى كاد يصبح هذا الاسم مرادفاً لاسم الجامعة . ورأى مونتينى فى منهج اللاهوت والآداب القديمة المنقاة نمطاً سطحياً من الاستذكار والامتثال . أما رابليه فلم يتعب من ذم الشكليات المدرسية والتدريبات المنطقية السائدة فى السوربون ، وضياع سنى الدراسة فى مناظرات أبعدت فى حرص عن الاهتمام الفعلى بالحياة الإنسانية . وأما كليمان مارو فقد صرح بقوله « إننى على استعداد للتضحية عن طيب خاطر بنصيبى فى الجنة لو أن هؤلاء الوحوش الكبار (أى

الأساتذة) لم يدمروا شبابى »(١٣) . ووجهت قوة الجامعة وسلطانها كله ، لا لمقاومة البروتستنت الفرنسيين فحسب ، بل الإنسانيين الفرنسيين أيضاً .

وبذل فرانسوا الأول ما وسعه لحماية الثقافة الفرنسية من مثبطات المحافظين المنبعثة من السوربون . وكان قد شرب من خمر إيطاليا والتقى ببعض رجال الكنيسة ممن تعمقوا أدب اليونان والرومان . وبحض من جيوم بوديه ، والكردينال جان دبليه ، ومارجريت المثابرة فى غير كلل — قدم المال لإنشاء مدرسة مستقلة عن الجامعة (١٥٢٩) ، متفرغة بوجه خاص للدراسات الإنسانية . وبدئ بتعيين أربعة من «الأساتذة الملكيين » اثنان منهم لليونانية واثنان للعبرية ، وسرعان ما أضيفت كراس للالهية والرياضيات والطب والفلسفة . وكان التعليم فيها مجاناً(١٤) . وأصبحت هذه « الكلية الملكية » التى عدل اسمها فيما بعد إلى « كلية فرنسا » باعثة النشاط فى الدراسات الإنسانية الفرنسية ، وملاذ العقل الفرنسى الذى يجمع بين الحرية والنظام .

أما أسبانيا فقد قيض لها جامعات ممتازة برغم تحمس الدولة للكاثوليكية التقليدية ، فكان عددها أربع عشرة عام ١٥٥٣ ، شملت ما أسس منها حديثاً فى طليطلة وسنتياجو وغرناطة . أما جامعة سلامنكا التى ضمت سبعين أستاذاً و ٦٧٧٨ طالباً فى عام ١٥٨٤ فتثبت للمقارنة بأية جامعة أخرى من جامعات ذلك العهد . وأما جامعات إيطاليا فقد واصلت ازدهارها ، فكان بجامعة بولونيا فى ١٥٤٣ سبعة وخمسون أستاذاً بكلية الآداب ، وسبعة وثلاثون بكلية الحقوق ، وخمسة عشر بكلية الطب ٥ وكانت بادوا مقصد الطلاب المغامرين الوافدين من شمال الألب ٥ وقدمت بولنده الدليل على عصرها الذهبى بقبولها ١٥،٣٣٨ طالباً دفعة واحدة فى جامعة كركاو(١٥) ، وفى بوزنان خصص « اللوبرانسكياموم » الذى أنشأه الأسقف يوحنا لوبرانسكى (١٥١٩) للأبحاث والدراسات الإنسانية ٥

ويمكن القول على الجملة أن الجامعات فى البلاد الكاثوليكية أوفر حظاً منها فى البلاد البروتستنية فى هذا القرن العنيف .

على أن المعلم لم يلق ما هو خليق به من تقدير . وكان مغموط الأجر إلى حد أليم . كان الأستاذ فى « الكلية الملكية » بفرنسا يتقاضى ٢٠٠ كراون فى العام (٥٠٠٠ دولار؟) ؛ ولكن هذا كان استثناء نادراً . وكان الأساتذة فى جامعة سلامنكا يختارهم الطلاب بعد فترة اختبار يعرض فيها الأساتذة المتنافسون عينات من محاضراتهم . وكان أكثر التعليم بالمحاضرات . وأحياناً تضفى عليها الحياة بالمناظرات . وكان أخذ المذكرات يحل عند كثير من الطلبة محل الكتب الدراسية . أما القواميس فنادرة . وأما المعاجم فمجهولة عملياً إلا للمشتغلين بالكيمياء القديمة . وكان الطلاب يسكنون حجرات رخيصة سيئة التدفئة ويقعون فريسة للمرض بسبب قذارة الطعام ونقصه . وكان كثير منهم يشتغلون لتغطية نفقات الكلية . وتبدأ الفصول فى السادسة صباحاً وتنتهى فى الخامسة بعد الظهر . وكان النظام صارماً ، يجوز بمقتضاه جلد الطلبة حتى من قارب منهم التخرج . وكان الطلاب يلتمسون الدفء فى مشاجرات الشوارع وفى كئوس النبيذ وأحضان البغايا إذا تيسر لهم المال . وهكذا كانوا بطريقة أو بأخرى يحصلون قسطاً محدوداً من التعليم .

أما فتيات الطبقات الدنيا فظللن أميات ، وكان كثيرات من بنات الطبقات الوسطى يظفرن بتعليم مدرسى متواضع فى أديار الراهبات ، أما الفتيات الغنيات فلهن مربون خصوصيون . وقد فاخرت هولندة بعدة سيدات يمكن مغازلتهن باللاتينية ؛ وربما يستطعن تصريف الأفعال خيراً من تصريف الأسماء والضمائر والصفات ؛ واشتهرت فى ألمانيا زوجة يوتنجر وشقيقات بركهيمر وبناته بثقافتهن ؛ وفى فرنسا كانت النساء المحيطات بالملك فرانسوا يجملن عبارات الغزل بمحسنات يقتبسنها من الآداب القديمة ؛

وفى إنجلترة كانت بعض النساء المثقفات — كبنات مور ، وجين جراى ، و « مارى الدموية » ؛ وإليزابيث — مضرب المثل فى سعة المعرفة والاطلاع .

وينتمى إلى هذا العصر معلمان شهيران . أما أقلهما شأناً فهو السير توماس إليوت ، الذى وضع فى كتابه « الحاكم » (١٥١٣) خطة تعليم تيسر إعداد الطلاب العريق النسب للاشتغال بشئون الحكم . وقد بدأ كتابه بنقد الفجاجة الثقافية التى يتردى فيها نبلاء الإنجليز ، وقارنها بما روى عن ثقافة رجال الأعمال عند اليونان والرومان ، ونقل ما روى عن الفيلسوف الكلبى ديوجين « حين رأى رجلا جاهلا جالساً على حجر فقال : انظر كيف يجلس حجر على حجر »(١٦) .

وفى رأى إليوت أن الصبى متى بلغ السابعة يجب أن يعهد به إلى مرب يختار بعناية ، فيعلمه مبادئ الموسيقى والتصوير والنحت ، حتى إذا ناهز الرابعة عشرة تعلم وصف الكون والمنطق والتاريخ ، ودرب على المصارعة والصيد والرمى بالقوس الطويل والسباحة والتنس ، دون كرة القدم لأنها لعبة سوقية « ليس فيها غير الثورة الوحشية والعنف الظاهر » . ويجب أن يعلم الصبى الآداب القديمة فى كل مرحلة من مراحل تعليمه — فيبدأ بالشعراء ، ثم المؤرخين ، ثم القواد ، ثم الفلاسفة ، ويضيف إليوت إلى هذا الكتاب المقدس ، وتكاد الإضافة تبدو فكرة لاحقة ، وهو بهذا يعكس الخطة التعليمية التى وضعها لوثر . ويفضل إليوت الآداب القديمة على الكتاب المقدس برغم توكيداته . فهو يقول « رباه ، يا لها من حلاوة لا نظير لها فى كلمات كتب أفلاطون وشيشرون ، وفى مادة هذه الكتب التى جمعت بين الرزانة والعذوبة ، واقترنت فيها الحكمة الرائعة بالبلاغة الإلهية ، والفضيلة المطلقة باللذة التى لا تصدق » ، وهكذا « فان هذه الكتب تكاد تكفى فى ذاتها لإعداد الحاكم الكامل الممتاز (١٧) »

أما ثانى المعلمين وهو جوان فيف ، أكثر الأدباء الإنسانيين إنسانية ،

فقد اختط هدفاً أوسع وترسم طريقاً أرحب . ولد فى بلنسيه فى ١٤٩٢ . ورحل عن أسبانيا وهو فى السابعة عشرة ، ولم يرها بعد ذلك قط . وقد درس فى باريس فترة أتاحت له حب الفلسفة واحتقار الفلسفة الكلامية . وحين بلغ السادسة والعشرين ألف أول تاريخ حديث للفلسفة . وفى السنة ذاتها تحدى الجامعات بهجوم على الطرائق السكولاستية فى تعليم الفلسفة . فقد شعر بأن خطة النهوض بالفكر بطريق المناظرة لا تشجع إلا الشجار العقيم حول مسائل لا وزن لها . ورحب إرزمس بالكتاب وأوصى مور بأن يقرأه ، وقال فى أدب إنه يخشى أن « يخجب . . فيف . . إرزمس .(١٨) » وعين فيف أستاذاً للدراسات الإنسانية فى لوفان (١٥١٩) ربما بنفوذ إرزمس . ثم نشر بتشجيع إرزمس طبعة من كتاب أوغسطين « مدينة الله » عليها شروح ضافية وأهداها إلى هنرى الثامن . وتلقى منه رداً رأى فيه من الود ما حمله على الانتقال إلى إنجلترا (١٥٢٣) . ورحب به مور والملكة كاترين التى تنتمى إلى وطنه (أسبانيا) . وعينه هنرى واحداً من أساتذة الأميرة مارى الخصوصيين . وربما ألف كتابه « فى تربية الأطفال » لإرشادها (١٥٢٣) . وسارت الأمور على ما يرام إلى أن أعرب عن استنكاره لطلب هنرى فسخ زواجه . فأوقف هذا راتبه واعتقله فى بيته ستة أسابيع ٥ ولما أطلق سراحه عاد إلى بروج (١٥٢٨) وهناك أنفق سنى حياته الباقية ٥

وإذ ظل مثالياً وهو فى السابعة والثلاثين فقد وجه إلى شارل الخامس نداء إرزمياً يدعوه فيه إلى إنشاء محكمة دولية للتحكيم بديلا عن الحرب (١٥٢٩) وبعد عامين أصدر أكبر كتبه ، وهو أكثر رسائل النهضة الأوربية التعليمية تقدماً ، وفيه دعا إلى تعليم موجه إلى « ضروريات الحياة ، وإلى شىء من النهوض سواء بالجسد أو العقل ، وإلى تربية الاحترام وزيادته(١٩) » وقال

إن على التلميذ أن يدخل المدرسة « كأنه يدخل هيكلا مقدساً » ولكن دراسته فيها يجب أن تعده ليكون مواطناً كريماً نافعاً ، وأن تغطى هذه الدراسات الحياة بأسرها مع مراعاة اتصالها بعضها ببعض كما تؤدى وظائفها فى الحياة . ويجب أن تدرس الطبيعة كما تدرس الكتب ، فالأشياء تعلم الطالب أكثر مما تعلمه النظريات ، فليلاحظ إذن العروق والأعصاب والعظام وسائر أعضاء الجسم فى تشريحها وفى أداء وظائفها . وليسأل المزارعين والصيادين والرعاة والبستانيين ، وليفد من خبراتهم ، فان هذه المعلومات التى يلتقطها ستكون أنفع له من « الثرثرة السكولاستية التى أفسدت كل فروع المعرفة باسم المنطق »(٢٠) . وينبغى أن تظل الدراسات القديمة المنقاة خصيصاً للشباب جزءاً حيوياً من المنهج ، ولكن يجب أن يدرس أيضاً التاريخ الحديث والجغرافيا . كذلك يجب أن تدرس اللغات القومية كما تدرس اللاتينية ، وكل هذا بالطريقة المباشرة المستعملة فى الحياة اليومية .

لقد كان فيف متقدماً جداً على جيله ، فلم يفطن إليه ذلك الجيل ، وتركه يموت فقيراً ، وقد ظل كاثوليكياً إلى النهاية .

٣ — العلمـــاء

كانت المهمة المميزة للجامعات والأكاديميات والعلماء الإنسانيين فى عصر النهضة هى جمع تراث العالم القديم ، عالم اليونان والرومان ، وترجمته ونقله إلى جيل الشباب فى أوربا الحديثة . وقد أنجزت هذه المهمة على وجه رائع ، وكان الكشف عن وحى العالم القديم كاملا .

بقى رجلان يجب أن يخلد ذكرهما كاهنين لهذا الوحى ، وأول الرجلين هو جيوم بوديه ، الذى بلغ الثانية والستين و هو يعلل النفس بأن يجعل باريس وارثة للدراسات الإنسانية الإيطالية ، ثم رأى هذا الأمل يتحقق

حين أنشأ فرانسوا الكلية الملكية . وقد بدأ بوديه دراساته فى كبره بدرس القانون ، فظل زهاء عشر سنوات يدفن نفسه فى « قوانين جستنيان » . ورغبة فى تفهم هذه النصوص تفهماً أفضل ، وهى لاتينية اللغة بيزنطية المعانى ، راح يدرس اليونانية على يوحنا لاسكارس ، ويدرسها فى إخلاص وتفان حملا مدرسه عند رحيله أن يوصى له بمكتبته الثمينة العامرة بالكتب اليونانية . فلما نشر وهو فى الحادية والأربعين كتابه (١٥٠٨) Annotationes in xxlv libros Pandectarum توفرت للمرة الأولى فى فقه النهضة ، دراسة لخلاصة جستنيان تستهدف هذه الخلاصة ذاتها وبيئتها ، بدلا من أن تنحيها هوامش الشراح لعباراتها . وبعد ست سنوات أصدر أثراً جليلا آخر من آثار البحث العميق (De asse et Partibus) وهو فى ظاهره نقاش للعملات والمقاييس القديمة . ولكنه فى حقيقته درس شامل للأدب القديم فيما يتصل بالحياة الاقتصادية ؛ وأوقع من هذا « تعليقاته على اللغة اليونانية » (١٥٢٩) . وهو كتاب منكك الترتيب ، ولكنه غنى بالمعلومات والإرشادات المعجمية ، حيث وضع بوديه على رأس جميع الهيلنستيين الأوربيين. وأرسل له رابليه خطاباً أعرب فيه عن احترامه وتقديره . أما إرزمس فكانت تحيته له أنه غار منه . لقد كان إرزمس رجل دنيا ولم يكن الدرس إلا جزءاً من الحياة عنده . أما بوديه فكان الدرس والحياة عنده شيئاً واحداً . كتب يقول « إن فقه اللغة هو الذى ظل طويلا رفيقاً وشريكاً لى، بل كان لى الخليلة التى ارتبطت بى بكل مواثيق الحب : . . ولكننى اضطررت إلى إرخاء ربط هذا الحب الذى يبهشنى . . . حتى كاد يدمر صحتى (٢١) » . وكان يحزنه أن يضطر إلى اقتناص بعض الوقت من دراساته ليأكل وينام . وفى لحظات لهوه تزوج وأنجب أحد عشر طفلا . وفى الصورة التى رسمها له جان كاوين (المحفوظة بمتحف الفن المتروبولتانى فى نيويورك) تبدو عليه مسحة من تشاؤم .

ولكن فرانسوا الأول لا بد قد وجد فيه شيئاً من الحيوية لأنه عينه أميناً لمكتبة فونتنبلو ، وكان يحب أن يكون هذا العالم العجوز قريباً منه حتى فى رحلاته ؛ وفى إحدى هذه الرحلات مرض بوديه بالحمى ، وقد ترك تعليمات دقيقة بألا يصحب جنازته أى إحتفال . وفارق هذه الدنيا فى هدوء (١٥٤٠) . أما الأثر الذى خلده فهو كلية فرنسا ؛

ولم تكن باريس إبان حياته قد استوعبت بعد الحياة الثقافية لفرنسا ؛ كان للدراسات الإنسانية اثنا عشر وطناً فرنسياً : منها بورج وبوردو ومونبلييه ، وأهم من هذه كلها ليون ، التى امتزج فيها الحب والدراسات الإنسانية ، ونساء الطبقة الراقية والأدب ، امتزاجاً ساراً مبهجاً . وفى آجن ، التى ما كان أحد ليبحث فيها عن إمبراطور ، هيمن يوليوس قيصر سكاليجر على مسرح فقه اللغة بعد موت بوديه هيمنة الإمبراطور المستبد . ولعل بادوا مسقط رأسه (١٤٨٤) . وقد وفد على آجن وهو فى الحادية والأربعين ، وفيها عاش حتى مات (١٥٥٨) . وكان كل العلماء يخشون بأسه لشدة تمكنه من لغة القدح اللاتينية ، وقد اكتسب شهرة حين هاجم إرزمس لغضه من شأن « الشيشرونيين » أى المتمسكين بلاتينية شيشرون دون غيرها . وانتقد رابليه ، ثم انتقد دوليه لانتقاده رابليه . وفى مجلد من كتابه Exercitationes فحص كتاب جيروم كاردان De subtilitate وأخذ على عاتقه أن يثبت أن كل ما أكده الكتاب زائف ، وكل ما أنكره صحيح . وكان كتابه فى النحو اللاتينى أول أجرومية لاتينية مبنية على مبادئ علمية . أما تعليقاته على أبقراط وأرسطو فممتازة ، سواء من حيث أسلوبها أو من حيث إسهامها فى العلم . وكان ليوليوس خمسة عشر طفلا أصبح أحدهم أعظم علماء الجيل التالى . وقد أسهم كتاب يوليوس Poetice الذى نشر بعد موته بأربع سنوات ، وما قام به ولده من دراسات ، وما أثر به الإيطاليون الذين

تبعوا كاترين مديتشى إلى فرنسا ــ كل هذا أسهم فى تحويل تيار الدراسات الإنسانية الفرنسية وردها من الدراسات اليونانية إلى اللاتينية .

وقد أهدت حركة إحياء الدراسات اليونانية للثقافة عطاء ممتازاً هو ترجمة أميو لكتاب بلوتارخ « التراجم » . كان أميو أحد الرجال الكثيرين الذين حظوا برعاية مارجريت . وقد عين بنفوذها أستاذاً لكرسى اليونانية واللاتينية فى بورج . وكوفئ على ترجماته لدافنيس وخلوا وغيرها من قصص الحب اليونانية ، على طريقة ذلك العصر العجيبة السخية ، بمنحه رئاسة دير غنى . وإذ كفل له الرزق على هذا النحو تنقل كثيراً بين أرجاء إيطاليا إرضاء لميوله الأثرية واللغوية . ولما نشر كتابه « التراجم » (١٥٥٩) قدم له بدعوة بليغة لدراسة التاريخ بوصفه « خزانة البشرية » ، والمتحف الذى يحتفظ بمثات الأمثلة للفضيلة والرذيلة ، وللحكم الصالح والطالح ، ليسترشد بها بنو البشر ؛ وكان كتابليون يرى كتاب بلوتارخ فى التاريخ معلماً للفلسفة خيراً من الفلسفة ذاتها . ومع هذا فقد اضطلع بعد هذا بترجمة كتاب بلوتارخ Moralia أيضاً ، وقد رقى إلى أسقفية أوجزير ، ومات هناك معمراً فى الثمانين (١٥٩٣) . أما ترجمته لكتاب بلوتارخ « التراجم » فلم تكن صحيحة دقيقة فى كل جزء منها ، ولكنها كانت أثراً أدبياً فى ذاته ، تميز بأسلوب طبيعى فردى لا يقل عن أسلوب الأصل . أما تأثيره فكان هائلا . وقد استمتع به مونتينى أيما استمتاع ، وانصرف عن فرنسا القديس بارتلميو إلى هذا الأثر القديم الذى أضفت عليه الترجمة روعة وسموا . واختار شكسبير ثلاث تمثيليات من ترجمة نورث القوية المنقولة عن ترجمة أميو ، وأصبح المثال الذى رسمه بلوتارخ للبطل نموذجاً حاكاه عشرات الثوار وكتاب المسرحيات . وأعطى هذا الكتاب Vies des hommes illustres للأمة مجمعاً من الأبطال المشهورين خليقاً بأن يحرك ما تنطوى عليه الروح الفرنسية من الفضائل الأكثر رجولة وأشد قوة .

٤ — النهضة الفرنسية (الميلاد الجديد)

من الأشياء المألوفة والمغتفرة أن تطلق عبارة « الميلاد الجديد » ، وهى عبارة حافلة بالمعانى الإضافية ، على الفترة الممتدة بين ارتقاء فرانسوا الأول العرش (١٥١٥) واغتيال هنرى الرابع (١٦١٠) . كان هذا الازدهار البهى للشعر والنثر والعادات الاجتماعية والفنون والملابس الفرنسية فى جوهره نضجاً أكثر منه ميلاداً جديداً . فقداستطاع الاقتصاد الفرنسى والروح الفرنسية أن يفيقا من حرب المائة عام بفضل ما أتيح للناس من مرونة صابرة وما استجد من نمو التربة التى ألقيت فيها البذار حديثاً . وكان لويس الحادى عشر قد منح فرنسا حكومة منظمة ممركزة قوية ، ومنحها لويس الثانى عشر عقداً مثمراً من السلام . وظلت إبداعية العصر القوطى الحرة ، الطليقة ، الغريبة الأطوار ، حية متوازنة غالبة على رابليه ، الذى بلغ إعجابه بالآداب القديمة مبلغاً جعله يقتبس منها كلها تقريباً . ولكن اليقظة الكبرى كانت كذلك ميلاداً جديداً . فقد تأثر الأدب والفن الفرنسيان تأثراً لا ريب فيه بما أتيح لهما من علم أوثق بالثقافة القديمة والأشكال الكلاسكية . واستمرت هذه الأشكال وهذا المزاج الكلاسيكى — الذى يغلب الفكر المتظم على العاطفة المشبوبة — فى الدراما والشعر والتصوير والنحت و المعمار الفرنسى زهاء ثلاثة قرون . أما العوامل المخصبة فى هذا الميلاد الجديد فهى الكشف والغزو الفرنسيان لإيطاليا ، والدراسة الفرنسية للآثار والفقه والآداب الرومانية وللآداب والفنون الإيطالية ، وتدفق الفنانين والشعراء الإيطاليين على فرنسا . وأسهمت عوامل كثيرة أخرى فى بلوغ هذه النهاية السعيدة : كالطباعة ونشر النصوص القديمة وترجمتها ، والرعاية التى حظى بها العلماء والشعراء والفنانون من الملوك الفرنسيين ومن عشيقاتهم ومن مارجريت النافارية ومن رجال الكنيسة والأشراف ، ومن إلهام النساء القادرات

على تذوق ألوان أخرى من الجمال غير جمالهن . كل هذه العناصر تضافرت للعمل على ازدهار فرنسا .

كان لفرانسوا الأول — الوريث لهذا التراث كله — تابع هو الشاعر الذى أدى مهمة الانتقال من القوطى إلى الكلاسيكى ومن فيون إلى النهضة . دخل هذا الشاعر — واسمه كليمان مارو — التاريخ صبياً مرحاً فى الثالثة عشرة يروح عن الملك بالقصص الظريفة والردود الذكية البارعة. وبعد سنوات هش فرانسوا لأنباء مغامرات الفتى ومشاجراته مع « جميع سيدات باريس » ، فقد وافقه على أنهن فى الحق فاتنات جداً .

« إن المرأة الفرنسية كاملة لا عيب فيها
فالسرور رائدها ، وهى لا تعبأ بالمال .
والفرنسيات — مهما قلت فيهن أو سخرت منهن —
هن أروع أعمال الطبيعة »(٢٢) .

كان مارو يثرثر بالشعر كأنه النبع الفوار ، وقلما اتصف شعره بالعمق ، ولكنه كان فى الكثير الغالب مشوباً بالعاطفة الرقيقة . كان شعر مناسبات ، وحديثاً فى أبيات قصيرة ، أو أغنيات شعبية ، أو قصائد غزلية صغيرة ، أو أغنيات ذوات لوازم متكررة ، أو هجائيات ورسائل تذكرك بهوراس أو مارتيال ، وقد لاحظ فى شىء من الغيظ أن النساء (برغم اعتراضه على هذا السلوك) يسهل إغراؤهن بالملس أكثر من القصائد العاطفية :

« حين تجد الغوانى عشيقاً ثرياً يلوح بمأسة أمام عيونهن الضاحكة الخضراء فإن رءوسهن تدور . أتضحك مما أقول ؟ ملعون من يخطئ هنا . فالفضيلة العظمى لهذا الحجر الكريم هى التى تنشر الضباب أمام عيونهن. وإن عطايا وهدايا كهذه لأفضل من الجمال والحكمة والتوسلات . إنها تنوم الوصيفات ، وتفتح الأبواب الموصدة كأنها السحر . وتعمى

عيون المبصرين ، وتسكت نباح الكلاب . والآن أما زلت تكذبنى ؟ » .

وفى ١٥١٩ أصبح مارو وصيفاً خاصاً لمارجريت ووقع فى غرامها ممتثلا ، وذكرت الأقاويل أنها بثته شكوى بشكوى ، وأكبر الظن أنه لم ينل منها غير مذهبها . فقد عود نفسه الآن على التعاطف المعتدل مع قضية البروتستنت فى فترات غرامياته . وتبع فرانسوا إلى إيطاليا ، وحارب فى بافيا وأبلى فيها بلاء الأبطال ، ونال شرف الأسر مع مليكه ، ثم أطلق سراحه — ولا عجب ، فان أحداً لا يتوقع أن يفتدى شاعر بالمال . ولما عاد إلى فرنسا جهر بأفكاره البروتستنتية فى صراحة حملت أسقف شارتر على أن يستدعيه ويعتقله اعتقالا كريماً فى القصر الأسقفى . ثم أطلق سراحه بشفاعة مارجريت . ولكن سرعان ما قبض عليه لمساعدته المسجونين على الفرار من البوليس . وأطلق فرانسوا سراحه بكفالة وأخذه إلى بايون ليتغنى بمفاتن عروسه الجديدة إليانور البرتغالية . وبعد أن قضى فى السجن فترة أخرى لأكله لحم الخنزير فى الصوم الكبير تبع مارجريت إلى كاوْر ونيراك .

وسرعان ما تجددت الحملة على البروتستنت الفرنسيين نتيجة لحركة الملصقات . ونمى إلى مارو أن مسكنه فى باريس فتش ، وأن أمراً صدر بالقبض عليه (١٥٣٥) . وخاف ألا يجد مخبأ يكنى لإخفائه ولو كان مخدع مارجريت . ففر إلى إيطاليا لاجئاً إلى الدوقة رينيه فى فررا . ورحبت به الدوقة ، كأن فرجيلا جديداً قد وصل من مانتوا . ولعلها كانت تعلم أنه يحب أن يربط اسمه باسم بوبليوس فرجيليوس مارو . ولكنه كان أكثر شبهاً بأوفيد العاشق المرح . أو بشاعره المفضل فيون . الذى أشرف على نشر قصائده . وترسم خطاه فى حياته . ولما أذاع الدوق إركولى الثانى أنه اكتظ بالبروتستنت . انتقل كاليفان إلى البندقية . وهناك بلغه أن فرانسوا عرض العفو عن المهرطقين المرتدين

عن ضلالهم . فأعلن مارو ارتداده ، لأنه رأى أن نساء باريس جديرات بتضحية العقيدة . ومنحه الملك بيتاً وحديقة ، وحاول كليمان أن يعيش عيشة السادة البورجوازيين .

ثم طلب إليه فرانسوا فاتابل الذى كان يدرس العبرية فى الكلية الملكية أن يترجم المزامير شعراً فرنسياً ، وشرحها له كلمة كلمة . فترجمها شعراً رخيماً ونشرها مشفوعة باهداء جميل العبارة إلى الملك . وأعجب بهـا فرانسوا إعجاباً حمله على أن يهدى نسخة خاصة منها إلى شارل الخامس ، الذى كان صديقاً له فى تلك الفترة . وبعث شارل إلى الشاعر بمائتى كراون (٥٠٠٠ دولار ؟) . وترجم مارو مزيداً من المزامير ونشرها فى ١٥٤٣ مع إهداء إلى غرامه الأول « سيدات فرنسا » . ووضع لها جوديميل موسيقى كما رأينا ، وبدأ نصف فرنسا ينشدها . ولكن إعجاب لوثر وكالفن أيضاً بها شكك السوربون ، فشمت فيها رائحة البروتستنتية ، أو لعل مارو عاد إلى التمتمة بهرطقاته فى محنة نجاحه . وتجددت الحملة عليه ، ففر إلى جنيف . ولكنه وجد المناخ اللاهوتى فيها أشد صرامة مما تحتمله صحته ، فتسلل إلى إيطاليا ومات فى تورين (١٥٤٤) فى التاسعة والأربعين ، تاركاً ابنة غير شرعية لرعاية ملكة نافار :

٥ — رابليـــه

(أ) رابليـــه الإنســان :

أن مؤلف « أمتع وأنفع ماروى من قصص »(٢٣)هذا المؤلف الفذ ، الواسع الحيلة ، الشكاك ، المرح ، المثقف ، البذىء — رأت عيناه النور فى ١٤٩٥ ، ابنا لموثق غنى فى شينون . وأدخل فى سن مبكرة جداً ديراً فرانسسكانيا . وقد شكا بعد ذلك من أن النساء « يحملن الأطفال تسعة شهور تحت قلوبهن . . . ولكنهن لا يطقن تربيتهم تسع سنوات . . .

ويكنى أن يضفن ذراعاً من القماش إلى ثيابهم ويحلقن شعرات لا أدرى كم عددها من قمة رءوسهم ليحولنهم طيوراً بيضع كلمات » . وهو يعنى جز شعورهم وتحويلهم رهباناً . وقد ارتضى الغلام حظه هذا لميله إلى الدرس ، ولعله كإرزمس اجتذبته مكتبة الدير إلى الكتب. وهناك التقى براهبين أو ثلاثة أخر راغبين فى دراسة اليونانية ، وقد شدهم هذا العالم القديم الفسيح الذى فتح لهم الدرس والبحث مغاليقه . وأحرز فرانسوا من التقدم ما جعل بوديه نفسه يبعث إليه بخطاب ثناء . وبدا أن الأمور تسير على ما يشتهى . وفى عام ١٥٢٠ رسم شكاك المستقبل قسيساً ، ولكن نفراً من كبار الرهبان شموا الهرطقة فى فقه اللغة ، فاتهموا الهلنستيين الشبان بشراء الكتب بالأتعاب التى يتلقونها نظير الوعظ بدلا من تسليمها للخزانة العامة . وحبس رابليه وراهب آخر حبساً انفرادياً ، وحرما الكتب وهى لهما نصف الحياة . ونمى إلى بوديه هذا الاتجاه الرجعى فلجأ إلى فرانسسوا الأول ، وأمر الملك باطلاق سراح الأديبين ورد امتيازاتهما . وبفضل شفاعة أخرى صدر مرسوم بابوى أذن لرابليه بتغيير تبعيته وإقامته الديريتين . فترك الفرنسسكان ، ودخل بيتاً بندكتيا فى مايزيه (١٥٢٤) ، وهناك أعجب به الأسقف جوفروا دستيساك إعجاباً حمله على أن يتفق مع رئيس الدير على السماح لرابليه بالذهاب حيث شاء للدرس ؛ وذهب رابليه ، ونسى أن يعود .

وبعد أن جرب عدة جامعات دخل مدرسة الطب فى مونبليه (١٥٣٠). ولا بد أنه كان قد حصل تعليماً سابقاً فى الطب ، لأنه نال درجة البكالوريوس فى الطب عام ١٥٣١ . على أنه لأسباب لا نعلمها لم يواصل دراسته لنيل الدكتوراة ، بل عاد إلى تجواله حتى استقر به النوى فى ليون فى ١٥٣٢ ، وجمع بين ممارسة الطب ودراساته الأدبية ، شأنه فى ذلك شأن سرفيتوس . ثم اشتغل مساعد تحرير للطباع سباستيان جريفيوس ونشر عدة نصوص

يونانية وترجم حكم أبقراط إلى اللاتينية . وانزلق برضاه إلى تيار الدراسات الإنسانية الذى كان يومها فى عنفوان تدفقه فى ليون . وفى ٣٠ نوفمبر ١٥٣٢ بعث بنسخة من « يوسيفوس » إلى إرزمس بخطاب زلفى يستغرب من رجل فى السابعة والثلاثين . ولكنك تشم فيه رائحة ذلك العصر الجياش بالحماسة :

« بعث إلى جورج دارمناك مؤخراً . . . بتاريخ فلافيوس يوسيفوس . . . وطلب إلى . . . أن أرسله إليك . وقد تحببت هذه الفرصة مشتاقاً ، يا أكثر الآباء إنسانية ، لأدلل لك بالتقدير الشاكر على احترامى العميق لك وعلى ولائى البنوى . أقول هل دعوتك بأبى ؟ أجدر بى أن أدعوك بأمى لو اتسع لذلك صدرك . فكل ما نعرف عن الأمهات . اللائى يغذين ثمرة بطونهن قبل أن يرينها وقبل أن يعرفن حتى ما ستكون عليه . واللائى يرعينها ويحمينها من قسوة الجو . كل هذا صنعته أنت بى . أنا الذى لم يكن وجهى معروفاً لك ولا كان اسمى المغمور ليستطيع أن يستهويك . لقد ربيتنى وغذوتنى من ذلك الصدر الطاهر . صدر معرفتك المقدسة . وكل ما أنا عليه . وكل ما أساويه . إنما أنا مدين به لك وحدك . ولو لم أجهر بهذه الحقيقة لكنت أشد الناس عقوقاً . تحية مرة أخرى أيها الأب المحبوب . يا شرف وطنك . ويا عماد الأدب . ويا نصير الحقيقة الذى لا يقهر »(٢٤) .

وفى نوفمبر من ذلك العام (١٥٣٢) نجد رابليه طبيباً فى الأوتيل ديو ، وهو مستشفى مدينة ليون . يتقاضى راتباً قدره أربعون جنيهاً (١٠٠٠ دولار ؟) فى العام . ولكن يجب ألا نحسبه عالماً أو طبيباً مثالياً . صحيح أن ثقافته كانت متنوعة وهائلة . فيبدو أنه كان كشكسبير له معرفة مهنية فى ميادين شتى — كالقانون والطب والأدب واللاهوت والطهو والتاريخ والنبات والفلك والميثولوجيا . وهو يشير إلى مئات الأساطير القديمة ، ويقتبس من عشرات المؤلفين القدامى ، ونراه أحياناً

يعرض علمه الواسع عرض الهواة . ولكنه شغل بالحياة شغلا لم يتح له وقتاً لبلوغ الدقة الشديدة فى دراسته . ولم تكن الطبعات التى نشرها نماذج تحتذى فى دقة التفاصيل . لم يكن فى طبعه أن يكون أديبا إنسانيا متفانيا كإرزمس أو بوديه ، فلقد كان يحب الحياة أكثر من الكتب . والصورة التى تركت لنا عنه صورة رجل تروع الناظر طلعته ، فارع القامة حلو الوجه ، ينبوع للثقافة ومحدث يشع نوراً ونارا(٢٥) . ولم يكن سكيراً كما استنتجت خطأ رواية قديمة متواترة من تحياته للسكارى ومن خمرياته . بل انه على العكس عاش عيشة مهذبة الى حد معقول ، هذا إذا استثنينا طفلا غير شرعى أنجبه ،(٢٦) ولم يعش سوى فترة قصيرة بحيث يمكن اعتباره خطيئة بسيطة . وقد كرمته أسمى عقول جيله ، بما فيهم نفر عديد من أحبار الكنيسة . وكان فى الوقت نفسه يتصف بكثير من صفات الفلاح الفرنسى ، فيجد لذة فى أنماط الفلاحين الصرحاء المرحين الذين يلقاهم فى الحقول والشوارع ويستمتع بفكاهاتهم وضحكهم وبقصصهم الطويلة وعباراتهم البذيئة المتفاخرة . وقد طغت شهرته دون عمد منه على شهرة إرزمس لأنه جمع هذه القصص ، وربط بينها ، وحسنها ، ووسعها ، وأضفى عليها الكرامة بالعلم الكلاسيكى ورفعها إلى مقام الهجاء البناء ، وضمنها فى حرص ما حوته من فحش وبذاءة .

ومن هذه القصص قصة كانت آنئذ ذائعة فى كثير من أنحاء الريف ، روت أخبار مارد لطيف يدعى جارجانتوا ، وتحدثت عن شهيته الوحشية ، وعن غرامياته ومظاهر قوته العظيمة ، وكانت تنتشر هنا وهناك تلال وصخور ذكرت الروايات المحلية أنها تساقطت من سلة جارجانتوا أثناء مروره . وكانت هذه الأساطير لا تزال تروى فى عام ١٨٦٠ فى الكفور الفرنسية التى لم تسمع قط برابليه . وقد دون كاتب مجهول — ربما كان رابليه نفسه — على سبيل التفكه بعض هذه الخرافات وطبعها

فى ليون فى كتاب سماه « الأخبار العظيمة الثينة للمارد الكبير المسائل جارجانتوا » (١٥٣٢) . وراج الكتاب بسرعة حمات رابليه على التفكير فى كتاب ملحق له عن ابن جارجانتوا . وهكذا ظهر فى سوق ليون المنعقدة فى أكتوبر ١٥٣٢ ، غفلا من اسم المؤلف ، كتاب عنوانه « الأعمال المرعبة المخيفة وأفعال البسالة التى قام بها بنتاجرويل الأشهر ». وكان هذا الاسم قد استعمل من قبل فى بعض الدرامات الشعبية ، ولكن رابليه أضفى على صاحبه محتوى وعمقاً جديدين . وندد السوربون والرهبان بالكتاب لبذاءته ، وراج رواجاً حسناً . واستمتع به فرانسوا الأول ، ووجد بعض رجال الدين لذة فى قراءته . على أن رابليه لم يعترف بأنه مؤلفه إلا بعد مرور أربعة عشر عاماً ، فقد خشى أن يعرض للخطر سمعته كأديب ، إن لم يعرض حياته .

وكان لا يزال شديد التعلق بالدرس . حتى أهمل واجباته فى المستشفى فطرد . ولعله كان ملاقياً عنتاً فى كسب قوته لولا أن جان دبلليه أسقف باريس والمشارك فى تأسيس كليه فرنسا أخذ رابليه معه طبيباً فى بعثة إلى إيطاليا (يناير ١٥٣٤) . ولما عاد رابليه إلى ليون فى إبريل نشر فى أكتوبر « قصة جارجانتوا الكبير ، أبى بنتاجرويل . وحياته المرعبة جداً » . وقد حوى هذا المجلد الثانى ، الذى أصبح بعد ذلك الجزء الأول من الكتاب كله ، هجاء مرحاً لرجال الدين حمل السوربون على التنديد به مرة أخرى . وسرعان ما راجت القصتان المنشورتان معاً رواجاً بز كل كتاب فى فرنسا باستثناء الكتاب المقدس و« محاكاة المسيح »[٢٧] . وقد قيل ن الملك فرانسوا ضحك وصفق استحساناً فى هذه المناسبة أيضاً .

ولكن لصق الإعلانات البروتستنتنية المهينة فى ليلة ١٧ — ١٨ أكتوبر ١٥٣٤ على مبانى باريس وعلى باب قصر الملك نفسه بدل الملك من حامى الأدباء الإنسانيين إلى مضطهد المهرطقين . وكان رابليه قد

أخفى مرة ثانية أنه مؤلف الكتاب ، ولكن الشكوك الكثيرة حامت حوله ، وحق له أن يخشى أن تطالب السوربون برأس الكاتب البذىء بعد أن حملت الملك فى ركابها . وهنا بادر جان دبلليه مرة أخرى إلى إنقاذه ، واختطف الكنسى الطيب الذى أصبح الآن كردينالا ذلك الأديب الطيب ، والكاتب البذىء ، من مخبئه فى ليون وأخذه إلى روما (١٥٢٥) . وكان من حظ رابليه أن يجد على كرسى البابويه رجلا مستنيراً. فاغتفر له بولس الثالث إهماله واجباته الديرية والكهنوتية وأذن له بممارسة الطب . وعكف رابليه — على سبيل التعويض والتكفير — على تنقية الطبعات التالية من كتابه ، « المؤيد يومئذ تأييداً مضاعفاً » ، من الفقرات التى تسىء إساءة شديدة إلى الذوق التقليدى . ولما احتال عليه إتيين دوليه فنشر دون إذنه طبعة غير منقاة ، شطب اسمه من قائمة أصدقائه . ثم عاد إلى الدرس فى مونبلييه برعاية الكردينال ، ونال الدكتوراة فى الطب ، وحاضر الجماهير الكبيرة هناك . ثم عاد إلى ليون ليستأنف حياته طبيباً وأديباً . وفى يونيو ١٥٣٧ ذكر دوليه أنه فى درس تشريح شرح أمام خماعة من الطلاب جثة مجرم نفذ فيه حكم الإعدام .

بعد هذا لا نعرف عن حياته المتقلبة غير نتف من هنا وهناك . كان فى حاشية الملك خلال الاجتماع التاريخى بين فرانسوا الأول وشارل الخامس فى إنجمورت (يوليو ١٥٣٨) . وبعد عامين نجده فى تورين طبيباً لجيوم دبلليه ، شقيق الكردينال ، بعد أن أصبح سفيراً لفرنسا فى سافوا . وحوالى هذه الفترة وجد الجواسيس فى رسائل رابليه فقرات أحدثت ضجة فى باريس فسارع إلى العاصمة وواجه الموقف بشجاعة . ثم برأه الملك (١٥٤١) ، وعلى الرغم من تنديد السوربون من جديد بجارجانتوا وبنتاجرويل عين فرانسوا المؤلف المطارد فى وظيفة حكومية صغيرة هى وظيفة مأمور العرائض ، ومنحه إذناً رسمياً بنشر

الجزء الثانى من بنتاجرويل الذى أهداه رابليه شاكراً إلى مارجريت النافارية . وقد أثار هذا الجزء من الاضطراب فى أوساط اللاهوتيين ما رأى معه رابليه أن من الحكمة أن يلتجىء إلى متز ، وكانت يومها جزءاً من الإمبراطورية . وهناك قضى عاماً يشتغل طبيباً بمستشفى المدينة (١٥٤٦ — ٤٧) . وفى ١٥٤٨ رأى أن لا خطر عليه فى الرجوع إلى ليون ، وفى ١٥٤٩ عاد إلى باريس . وأخيراً حصل له حماته من رجال الكنيسة على وظيفة قسيس لأبرشية مودون الواقعة إلى الجنوب الغربى من العاصمة مباشرة ، وهكذا عاد هذا الكهل المزعج ، المطارد ، إلى ثيابه الكهنوتية . ويبدو أنه وكل إلى مرءوسيه أداء واجبات وظيفته الدينية واكتفى بالانتفاع بايرادها (٢٨) . وكان على قدر علمنا لا يزال قسيس مودون حين نشر ما هو الآن الجزء الرابع من كتابه (١٥٥٢) . وفى هذا الموقف شىء من الشذوذ . وقد أهداه إلى أوديه كردينال شاتيون ، بإذن منه على الأرجح ، وواضح أنه كان فى فرنسا إذ ذاك بين رجال الكنيسة نفر أوتوا ثقافة كرادلة النهضة الإيطالية ونساءهم . على أن السوربون نددت بالكتاب ، وحظر « البرلمان » بيعه . وكان فرانسوا الأول ومارجريت قد ماتا ، ولم يجد رابليه حظوة لدى هنرى الثانى المكتئب المزاج . فغاب عن باريس حيناً ثم عاد إليها سريعاً . وهناك مات بعد مرض طويل . وتروى قصة قديمة أنه حين سئل على فراش الموت إلى أين يتوقع أن يمضى أجاب « أنا ماض لأبحث عن ربما ، كبيرة »(٢٩) إنها أسطورة ، ويا للأسف .

(ب) جارجانتوا

تنبىء مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب (أو الجزء الثانى فى الأصل) للتو بمذاق الكتاب كله ورائحته :

« يا أشرف السكارى وأذيعهم صيتاً . وأنتم يا أغلى الفتيان المرحين ،

المفترى عليهم ، (لأنه إليكم أنتم دون سواكم أهدى كتاباتى) . . . او أنكم تأملتم شكل سقراط وقدرتموه حسب مظهره الخارجى لما ساوى فى نظركم قشرة بصلة . . . إنكم يا تلاميذى الطيبين وغيركم من الحمقى المرحين ، المؤثرين الراحة والدعة ، إذ تقرءون العناوين السارة لبعض الكتب التى نخترعها . . . تتسرعون فى الحكم بأنه ليس فيها سوى النكات والدعابات الساخرة والحديث الفاجر والأكاذيب المروحة عن النفس . . . ولكن . . . حين تطلعون على هذا المقال ستجدون . . . تعليماً ذا تفكير أعمق وأكثر تجرداً . . . . سواء فيما يتصل بديننا أو شئون الحكم العام والحياة الاقتصادية . . . وقد يتكلم أحمق مغرور مشوش العقل بشر عن كتبى ، فلا تعبأوا به ، وامرحوا الآن يا أبنائى ، واشرحوا صدوركم ، واقرأوا بابتهاج . . . . هيا إلى آخر كلمة » .

وهذا الكلام منقول عن ترجمة أوركهارت الشهيرة ، التى تتجاوز الأصل أحياناً ، ولكنها هنا تلتزمه بدقة ، حتى لتذكر الكلمات العنيفة التى لم يعد مسموحاً بها فى حديث المثقفين . وفى هاتين الفقرتين تطالعنا روح رابليه وهدفه : الهجاء الحاد مغلفاً فى تهريج يخفف من عنفه ، وملطخاً أحياناً بسناج خالص . ونحن نمضى فى هذه المغامرة على ما فيها من خطر ، شاكرين لأن الكلمة المطبوعة لا تنبعث منها رائحة خبيثة ، آملين أن نعثر وسط هذا الكوم من القمامة على بعض الأحجار الكريمة .

ويبدأ جارجانتوا بسلسلة نسب فريدة تحاكى أنساب التوراة شكلا . أما أبو المارد فهو جرانجوزييه ملك يوتوبيا . وأما أمه فهى جارجاميل ، حاملته أحد عشر شهراً . ولما بدأت آلام مخاضها اجتمع أصدقاء الأسرة ليسمروا وهم يحتسون النبيذ . زاعمين أن الطبيعة تكره الفراغ . ويقول الأب الفخور لزوجته بلهجة من لا يعرف الألم « امضى بشجاعة النعجة ، وأخرجى لنا هذا الغلام بسرعة . وسنعكف بعدها على العمل فوراً . . .

لنصنع غيره » . وتتمنى الزوجة لحظة أن يلقى حظ أبيلار ؛ ويقترح هو أن ينجز ما تتمناه للتو ، ولكنها تعود فتعدل . أما جارجانتوا الجنين فاذ وجد المنفذ العادى للوليد مسدوداً بقابض أخذ فى غير أوانه ، فقد « دخل وريد جارجاميل الأجوف » وتساق حجابها الحاجز وعنقها ، ثم « انبثق من الأذن اليسرى » . وما ان ولد حتى راح يصيح ، ويصيح بصوت علا حتى أسمع إقليمين : « الشراب ! الشراب ! الشراب ! » وخصص لطعامه ١٧,٩١٣ صفيحة من اللبن . ولكنه منذ البدء أبدى إيثاره للنبيـــذ .

ولما آن أوان تعليم المارد الصغير وتهيئته لارتقاء العرش ، عين له مرب خاص هو الأستاذ جوبلان الذى أحاله فى غبياً ، لأنه حشا ذاكرته بالحقائق الميتة وأربك عقله بحجج الكلاميين . واضطر جارجانتوا إلى سلوك سبيل يائس ، فنقل الغلام ووضعه فى رعاية الأديب الإنسانى بونوكراتيس . وانطلق الأستاذ وتلميذه إلى باريس لتحصيل أحدث تعليم فيها . وكان جارجانتوا يركب فرساً ضخمة قطع ذيلها الهفاف الغابات الفسيحة أثناء مرورها ، وهكذا أصبح جزء من فرنسا سهلا . ولما بلغا باريس ارتقى جارجانتوا برجاً من أبراج نوتردام واستهوته أجراس الكاتدرائية فسرقها ليعلقها حول عنق فرسه . وبدأ بونوكراتيس من جديد تعليم المارد الذى أفسد تعليمه ، وذلك باعطائه مسهلا هائلا ليطهر أمعاءه ومخه جميعاً ، ولا غرو فكلاهما وثيق الصلة بالآخر . فلما تنقى جارجانتوا على هذا النحو أولع بالتعليم وبدأ بحماسة يدرب جسده وعقله وخلقه فى وقت معاً . فدرس الكتاب المقدس والآداب القديمة والفنون ؛ وتعلم أن يعزف على العود والبيان وأن يستمتع بالموسيقى . وكان يجرى ويقفز ويصارع ويتسلق ويسبح ، ومارس الركوب والدفع بتنكبيه والمهارات التى يحتاج إليها المقاتل فى الحرب . والصيد ليربى شجاعته .

ولكى ينمى رئتيه كان يصيح حتى سمعته باريس كلها . وزار صناع المعادن وقاطعى الأحجار والصياغ والكيمائيين والنساجين وصانعى الساعات والطباعين والصباغين ودرس حرفهم « باعطائهم شيئاً يشربونه » وكان فى كل يوم يشارك فى عمل بدنى نافع ، ويذهب أحياناً لحضور محاضرة أو مشاهدة تجربه أو الاستماع إلى « مواعظ الوعاظ الإنجيليين » (وتلك نعمزة بروتستنتية) .

وفجأة استدعى جارجانتوا وهو يتلقى هذا التعليم كله إلى مملكة أبيه لأن ملكاً آخر يدعى بكروشول أعلن الحرب على جرانجوزييه . لماذا ؟ إن رابليه يسرق هنا قصة من كتاب بلوتارخ « حياة بيروس » ويروى أن قواد بكروشول راحوا يفاخرون بما يستطيعون فتحه من بلاد تحت قيادته : فرنسا وأسبانيا والبرتغال والجزائر وإيطاليا وصقلية وكريت وقبرص وروديس واليونان وأورشليم . . . ويغتبط بكروشول وتنتفخ أوداجه . غير أن فيلسوفاً عجوزا يسأله : « وما نهاية كل هذه المتاعب والأسفار ؟ » ويجيب بكروشول : « حين نعود سنجلس ونستريح ونبتهج » . ويقترح عليه الفيلسوف هذا الرأى « ولكن هبك لم تعد إلى وطنك قط لطول الرحلة وخطرها ، أفلا يحسن بنا أن نستريح من الآن ؟ » وصاح بكروشول « كفى . امضوا بنا قدماً . إنى لا أخشى شيئاً . . . وليتبعنى من يحبنى » (١ — ٣٣) . وتكاد فرس جارجانتوا تنهى الحرب مع بكروشول بالفوز عليه لأنها أغرقت آلافاً من رجال العدو بدفقة بسيطة واحدة من بولها .

ولكن بطل الحرب الحقيقى هو الأخ يوحنا ، وهو راهب أحب القتال أكثر من الصلاة ، وسمح لتطلعه الفلسفى أن يغامر فى مسالك أكثر خطراً . فهو يتساءل مثلا « ما السبب فى أن فخذى السيدة النبيلة تبدوان دائماً غضتين رطبتين ؟ » — ومع أنه لا يجد فى كتب أرسطو أو بلوتارخ ما ينيره فى هذه المشكلة الجذابة ، فانه هو نفسه يجيب إجابات

غنية فى العلم بفنون الأفخاذ . وقد أحبه كل رجال الملك ، وهم يقدمون له من الطعام والنبيذ ما يشتهى ، ويدعونه لخلع رداء الرهبنة حتى يستطيع ابتلاع المزيد من الطعام ، ولكنه يخشى ألا تتوفر له الشهية الطيبة لو خلعه . ويذم المؤلف جميع النقائص التى يرمى بها المصلحون البروتستنت جماعة الرهبان ، عن طريق هذا العضو المرح من أعضاء هذه القبيلة : كالكسل والشره والإسراف فى الشراب والتتمة بالصلوات والعداء للدرس والأفكار كلها ، اللهم الا رقعة متضائلة منها . يقول الأخ يوحنا : « فى ديرنا لا نعكف على الدرس أبداً مخافة أن نصاب بالتهاب الغدة النكفية » . (١ — ٣٩) .

واقترح جارجانتوا أن يكافئ الراهب على حسن بلائه فى الحرب بتعيينه رئيساً على دير قائم . ولكن يوحنا رجا بدل هذا أن يوفر له المال لتشييد دير جديد له قوانين « تناقض قوانين الأديار كلها » فيجب أولا ألا تقام حوله أى أسوار تحصره ، وأن يكون نزلاؤه أحراراً فى تركه حين يشاءون . ثانياً : يجب ألا تمنع النساء من دخول الدير . ولكن لا يدخله منهن سوى « الجميلات الحسنات الصورة الدمثات الخلق » ممن تتراوح أعمارهن بين العاشرة والخامسة عشرة . ثالثاً : لا يقبل من الذكور سوى من كان بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، على أن يكونوا وسيمى الوجوه كريمى المولد والطباع ، ولا يسمح للسكيرين أو المتعصبين بالدخول ، ولا للمتسولين أو المحامين أو القضاة أو الكتبة أو المرابين أو الحشعين النهابين أو المنافقين المتزلفين بدخول الدير . رابعاً : لا يسمح بنذور للعفة أو الفقر أو الطاعة ، فللأعضاء أن يتزوجوا وأن يستمتعوا بالمال وأن يكونوا أحراراً فى جميع شئونهم . ويطلق على الدير اسم تليمى أى « ماشئت » ، أما قانونه الوحيد فهو « افعل ما تريد » لأن « الناس الأحرار الطيبى العنصر الحسنى التربية الكريمى المعشر أوتوا بالطبع

غريزة وحافزاً يدفعانهم للفعال الفاضلة ويبعدانهم عن الرذيلة ، وهذه الغريزة اسمها الشرف » (١ — ٥٧) . وقد قدم جاجارجانتوا المال اللازم لإقامة هذه الفوضى الارستقراطية ، وارتفع بناء الدير حسب المواصفات التى وضعها رابليه فى تفصيل أغرى المعماريين برسم رسوم له . وقد زوده بمكتبة ومسرح وحمام سباحة وملعب للتنس وآخر لكرة القدم وكنيسة صغيرة وحديقة وأرض للصيد وبساتين فاكهة واسطبلات و ٩٣٣٢ حجرة . لقد كان فندقاً أمريكياً مقاماً فى بلد للنزهة . على أن رابليه نسى أن يزود الدير بمطبخ أو أن يدلنا على من يقوم بالأعمال الوضيعة فى هذا الفردوس .

جـ — پنتاجرويل

بعد أن خلف جارجانتوا أباه على العرش جاء دوره فى الإنجاب والتربية . فحين بلغ من العمر أربعمائة وثمانين وأربعة وأربعين عاماً أنجب بنتاجرويل من زوجته باديبيك التى ماتت وهى تلد الغلام فبكى عليها جارجانتوا « كما تبكى البقرة » و « ضحك كما يضحك العجل » حين رأى ولده القوى البدن . وشب بنتاجرويل حتى استفحل حجمه : وفى إحدى وجباته ابتلع رجلا عن غير قصد ، ولم يكن بد من إخراجه بعملية تعدين فى قناة المارد الصغير الهضمية ، ولما ذهب بنتاجرويل إلى باريس ليتلقى تعليمه العالى أرسل له جارجانتوا رسالة تشم فيها عبير النهضة الأوربية : —

ولدى الأعـــز :

. . . . مع أن المرحوم أبى الطيب الذكر جرانجوزييه بذل ما وسعه من جهد لييسر لى الإفادة من جميع نواحى العلم والمعرفة السياسية ، ومع أن جهدى وعكوفى على الدرس قابلا رغبته هذه بل جاوزاها ، فان

الزمن كما تعلم جيداً لم يكن يومها مواتياً كما هو الآن للتعلم . : . لقد كان زمناً مظلماً تحجب سماءه غيوم الجهالة وينبعث فيه شيء من نحس القوط ونكبتهم ، القوط الذين دمروا كل الأدب الطيب حيثما استقرت أقدامهم ، ذلك الأدب الذى رد بفضل الله فى عصرى إلى سابق إشراقه وكرامته بحيث لا يكاد يسمح لى الآن بدخول الصف الأول فى مدرسة ثانوية للصبيان . . . .

أما اليوم فقد زودت عقول الناس بشتى العلوم ، وأحييت العلوم القديمة التى ظلت منقرضة أجيالا كثيرة ، وأعيدت لغات الثقافة إلى نقائها القديم — وأعنى اليونانية (التى يخجل الإنسان بدونها من أن يعد نفسه أديباً أو عالماً) ، والعبرية ، والعربية ، والكلدية ، واللاتينية . كذلك شاع استعمال الطباعة ، أنيقة دقيقة بحيث لا يمكن تصور ما هو أرقى منها . . .

وفى نيتى . . . أن تتعلم اللغات تعليماً كاملا . . . أما التاريخ فلا يفتك حفظ أى جزء منه . . . وأما الفنون الحرة كالهندسة والحساب والموسيقى فقد أتحت لك تذوقها حين كنت بعد صبياً . . . فامض فيها قدماً . . . وأما الفلك فادرس كل أصوله ، ولكن دعك من التنجيم . . . لأنه ليس سوى غش وغرور خالصين . . . وأما القانون المدنى فانى أريدك أن تحفظ نصوصه عن ظهر قلب ثم تبحثها مسترشداً بالفلسفة . . . وأما أعمال الطبيعة فانى أود أن تدرسها بدقة . . . ولا يفتك أن تطلع بعناية على كتب الأطباء اليونان والعرب واللاتين ، ولا تحتقر التلموديين ، والقبلانيين ، واستكثر من التشريح لتلم إلماماً تاماً بذلك العالم الصغير ، أعنى الإنسان . كذلك اعكف فى بعض ساعات النهار على درس الكتاب المقدس : أولا العهد الجديد باليونانية ، ثم العهد القديم بالعبرية . . .

ولكن بما أن الحكمة كما قال سليمان الحكيم لا تدخل عقلا شريراً، والعلم بدون ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس ، فان من واجبك أن تخدم الله وتحبه وتخشاه . . . كن خدوماً لكل جيرانك وأحبهم كما تحب نفسك ، واحترم معلمك وتجنب حديث من لا ترغب فى التشبه بهم ، ولا تضيع المواهب التى منحك الله إياها . فاذا رأيت أنك حصلت كل ما يجب تحصيله من العلم فى تلك الناحية ، فعد إلى لكى أراك وأمنحك بركتى قبل أن أموت . . .

أبوك

جارجانتوا (٣٠)

وعكف بنتاجرويل على الدرس فى حماسة ، وتعلم لغات كثيرة ، وكان من الممكن أن يكرس وقته كله للقراءة والدرس لولا أنه التقى ببانورج . وهنا أيضاً يبرز التابع أكثر من السيد ، بأوضح حتى من بروز الراهب يوحنا ، كما يحجب سانشو بانزا أحياناً شخصية سيده دون كخوته . فرابليه لا يجد فى جارجانتوا ولا فى بنتاجرويل المجال الطليق لدعاباته البذيئة وألفاظه الصاخبة ، إنما هو فى حاجة إلى هذا المخلوق — الذى فيه أثر من الوغد ، ومن المحامى ، ومن الشاعر فيون ، ومن الفيلسوف — ليستخدمه أداة للهجو . وهو يصف بانورج (ومعنى الاسم : مستعد لعمل أى شىء) بأنه نحيل كالقط الجائع ، يسير فى حذر شديد « كأنه يمشى على قشر بيض » وأنه إنسان شهم وإن شابه بعض الفجور ، وأنه « عرضة لضرب من المرض . . . يسمى الإعسار » ، وأنه نشال ، « ومتشرد فاسق ، ومحتال ، وسكير . . . ورجل داعر جداً ، ولكنه فيما عدا ذلك خير الناس فى هذه الدنيا وأكثرهم فضيلة » (٢ — ١٤ ، ١٦) . وعلى فم بانورج يسوق رابليه أشد نكاته فحشاً . . . كان بانورج يمقت على الأخص ما درجت عليه نساء باريس من تزرير

(٣) .

أقمصتهن فى أعلى ظهورهن ، فقاضى النساء فى المحكمة . ولعله كان خاسراً دعواه ، ولكنه هدد بأن يبدأ عادة مماثلة فى سراويل الرجال . وهنا أمرت المحكمة بأن يترك النساء فتحة متواضعة ولكنها سالكة من الأمام (٢ — ١٧) . وحدث أن غضب بانورج من امرأة احتقرته . فرش ثوبها وهى راكعة للصلاة فى الكنيسة بسائل حيوان مدلل شديد الشهوة ، فلما قامت تبعها جميع كلاب باريس الذكور — وعددها ٦٠٠,٠١٤ فى ولاء إجماعى لا يعرف الكلل (٢ — ٢١ . ٢٢). ويولع بنتاجرويل بهذا الوغد تخففاً من الفلسفة . برغم أنه أمير بلغ غاية التهذيب . فيدعوه لمصاحبته فى كل رحلاته .

وبينما تمضى القصة فى جذل إلى الجزء الثالث يناقش بانورج موضوع زواجه بينه وبين نفسه وبينه وبين غيره . فيعدد ما للمشروع وما عليه خلال مائة صفحة فيها المشرق ، والكثير فيها ممل . ولكننا فى هذه الصفحات نلتقى بالرجل الذى تزوج امرأة خرساء . والفقيه الشهير بريدلحوس الذى ينتهى إلى أكثر أحكامه سلامة برمى الزهر . وتستوحى مقدمة الجزء الرابع لوكيان فتصف « مجمعاً للآلهة » فى السماء . وجوبيتر يشكو من الفوضى اللاأرضية . التى تسود الأرض . والثلاثين حرباً المستعرة فى وقت واحد . والكراهية المتبادلة بين الشعوب . وانقسامات اللاهوتيين ، وأقيسة الفلاسفة « فاذا نحن فاعلون بهذه الحرب حرب راموس وجالان — هذين اللذين يخرشان باريس كلها بعضها ببعض ؟ » — ويشير عليه الإله بريابوس بأن يحول هذين البطرسين Pierres إلى صخرتين (pierres) ، وهنا نرى رابليه يسطو على تورية من الكتاب المقدس :

ثم يعود إلى الأرض فيسجل فى الجزئين الرابع والخامس(*) رحلات

(*) نشر الجزء الرابع فى ١٥٦٢ بعد موت رابليه بتسع سنوات . ولعل الخمسة عشر فصلا الأولى قد خلفها رابليه (٣١) ، أما الفصول الاثنان والثلاثون الباقية فنسبتها اليه مشكوك فيها .

طويلة أشبه برحلات جلفر ، خرج فيها بنتاجرويل وبانورج والأخ يوحنا وأسطول يوتوبى ملكى ليبحثوا عن « معبد القارورة المقدسة » ، وليسألوا هل يحسن بيانورج أن يتزوج . وبعد عشرات المغامرات ، وبعد التنديد بأصوام « الصوم الكبير » ، وبكارهى البابا من البروتستنت ، وبعباد البابا من المتعصبين ، وبالرهبان ، وبتجار الآثار المزيفة ، وبالحمامين (القطط ذات الفراء) ، وبالفلاسفة الكلاميين ، وبالمؤرخين ، تنتهى الرحلة إلى المعبد . وعلى بوابته كتابة يونانية تقول : «إن فى النبيذ لحقاً » . وفى نبع قريب قارورة غمرت فى النبيـــذ إلى نصفها ينبعث منها صوت يقرقر قائلا « ترنك » ، وتقول الكاهنة باكبوك : إن النبيذ خير الفلسفات ، وإن « ما يميز الإنسان ليس الضحك بل شرب . . . . النبيذ الرطب اللذيذ » . ويسعد بانورج ان تؤيد الكاهنة ما كان يعرفه طوال الوقت ، فيصمم على أن يأكل ويشرب ويتزوج ويتحمل العواقب كما يخلق بالرجال ، وهو ينشد أغنية عرسية بذيئة ، ثم تصرف باكبوك الجماعة بعد أن تمنحها هذه البركة « ليحفظكم ذلك المحيط الفكرى الذى يوجد مركزه فى كل مكان ، ولا يوجد له نهاية فى أى مكان ، والذى تدعوه الله ، فى رعايته القوية القادرة » . (٥ — ٤٧) . وهكذا تختتم القصة العظيمة بمزيج مثالى من البذاءة والفلسفة .

(د) مضحك الملك :

أى معنى يتوارى خلف هذا الهراء ، وهل من حكمة فى هذا السيل الدافق من المرح الفاليرنى — البريابى ؟ يقول رابليه وهو يجرى الكلام على لسان أحد حمقاه « نحن مهرجى الريف فينا شىء من الحلافة ، نميل إلى تحطيم الألفاظ وتفكيك أوصالها » . (٥ — ١٨) . إنه يحب الألفاظ ، وعنده منها معين لا ينضب ، وهو يخترع مئات من الكلمات الجديدة ،

ويشتمها كشكسبير من كل حرفة ومهنه، ومن كل ميدان فى الفلسفة أو اللاهوت أو القانون .وهو يضع قوائم بالنعوت أو الأسماء أو الأفعال، وكأنما يلذه تأملها (٣ — ٣٨) ، ثم يستكثر من المترادفات فى نشوة من الإطناب ، ولقد كان هذا الحشو من قبل حيلة قديمة فى المسرح الفرنسى(٣٢) . وهو جزء من فكاهة رابليه التى لا حد لها ولا ضابط، وفيض تتضاءل أمامه حتى فكاهة أرستوفان أو موليير . أما بذاءته فوجه آخر من وجوه هذا الفيض الذى لا يمكن التحكم فيه . ولعل بعضها رد فعل للنسك الديرى ، وبعضها لامبالاة تشريحية لا تستغرب من طبيب ، وبعضها تحد جرىء للحذلقة ، وكثير منها يساير أسلوب العصر . وما من شك فى أن رابليه قد غلا فى فحشه غلواً شديداً ، حتى أننا بعد أن نقرأ عشر صفحات أونحوها من التفاصيل الماوثة بالتبول والتناسل والإفراز والغازات نمل القراءة وننصرف عنها . ولم يكن بد من مجىء جيل جديد من التأثير الكلاسيكى ليروض هذا الفوران البركانى ويخضعه للنظام .

على أننا نغتفر هذه العيوب لأن أسلوب رابليه ينطلق معنا فى يسر كما انطلق معه ؛ إنه أسلوب خال من التكلف والصنعة الأدبية ، أسلوب طبيعى سهل متدفق، هو بالضبط الأداة لسرد قصة طويلة . والسر فى حيوية رابليه هو الخيال مضافاً إليه النشاط مضافاً إليهما الوضوح . وهو يرى مئات الأشياء التى لا يراها معظمنا، ويلحظ دقائق لا حصر لها فى اللباس والسلوك والحديث ، ثم يجمع بينها بطريقة خيالية غريبة، ويطلق هذه الأخلاط يطارد بعضها البعض فوق صفحاته الضاحكة .

ثم تراه يستعير يمنة ويسرة جرياً على عادة جيله ، معتذراً عن هذا بما اعتذر به شكسبير من أنه يجود كل شىء يسرقه . فهو يتناول مئات من نتف الأمثال الواردة فى كتاب إرزمس « أداجيا »(٣٣) ، ويحكى

الكثير مما سبقه فى « مدح الحماقة » أو « الأحاديث » ، وهو يتمثل خمسين موضوعاً من بلوتارخ ، وذلك قبل سنوات من ترجمة آميو التى فتحت سجل العظماء هذا لأى لص من لصوص الأدب . وهو ينتحل من كتاب لوكيان « الحديث السماوى » وقصة فولنجو عن الخروف الذى أغرق ذاته ، ويجد فى كوميديات عصره قصة الرجل الذى ندم على أنه شفى زوجته من الخرس ، ويستعمل عشرات الأفكار التى توحى بها الخرافات والقصص الصغيرة التى انحدرت من فرنسا الوسيطة . وحين يصف رحلات بنتاجرويل نراه يعتمد على الحكايات التى نشرها رواد الدنيا الجديدة والشرق الأقصى . ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذه الاستعارات كلها ، ليس هناك مؤلف أكثر منه أصالة ، ولسنا نجد فى غير شكسبير وسرفانتيس مخلوقات واسعة الخيال ، مفعمة بالقوة والحياة ، كالراهب يوحنا ، أو كبانورج . على أن رابليه نفسه هو أهم خلق خلقه الكتاب ، إنه مزيج من بنتاجرويل ، والراهب يوحنا ، وبانورج ، وإرزمس ، وفيزاليوس ، ويوناثان سويفت ؛ مزيج ثرثار ، فوار ، محطم للأصنام ، عاشق للحياة .

وتعشقه للحياة هو الذى جعله يسلخ جلود أولئك الذين جعلوها أقل فتنة وإغراء . ولعله قسا بعض الشىء على الرهبان الذين لم يستطيعوا مشاركته ميوله أديباً إنسانياً ، ولا بد أن محامياً أو محاميين قد أنشبا براثنهما فيه ، لأنه يمزق فراء المحامين فى غل شديد . يقول محذراً قراءه « أنصتوا إلى ، إن عشتم ست دورات أولمبية فقط مضافاً إليهما عمر كلبين ، فسترون قطط القانون هؤلاء سادة على أوربا بأسرها » . ولكنه يسوط أيضاً القضاة ، والمدرسين ، واللاهوتيين ، والمؤرخين ، والرحالة ، وباعة صكوك الغفران ، والنساء . ولا تكاد تعثر فى الكتاب كله على كلمة طيبة عن النساء ، وتلك هى أشد نقط رابليه عمىً ، ولعلها الثمن الذى

دفعه راهباً وقسيساً وأعزب لافتقاره طول حياته إلى الحنان .

وقد اختلف المتشيعون له فى أمره . أهو كاثوليكى أم بروتستنتى أم حر التفكير أم ملحد . فهو فى رأى كالفن ملحد . أما عاشقه أناطول فرانس فينتهى إلى هذا الحكم « فى اعتقادى أنه لم يصدق أى شىء »(٣٤). وكان أحياناً يكتب كأشد ما يكون الكاثوليون سخرية من الناس واحتقارا لهم ، كما ترى فى لغة الغنام فى حديثه عن أمثل الطرق لإخصاب الحقول (٤ — ٧) . كان يتهكم بالصوم ، وبصكوك الغفران . وبرجال محاكم التفتيش ، وبالمراسيم البابوية ، ويلذه شرح الشروط التشريحية المطلوبة فى المرشح للبابوية (٤ — ٤٨) . ويبدو أنه لم يؤمن بالجحيم (٢ — ٣٠) . وتراه يردد حجج البروتستنت الذين قالوا إن البابوية تنزح أموال الشعوب (٤ — ٥٣) ، وأن كرادلة روما يحيون حياة البطنة والنفاق (٤ — ٥٨ — ٦٠) . وكان يتعاطف مع المهرطقين من الفرنسيين ، وقد قال إن بنتا جرويل لم يطل مكثه فى تولوز لأن القوم هناك « يحرقون حكامهم أحياء كما تشوى الرنجة الحمراء » . — مشيراً بذلك إلى إعدام أستاذ قانون مهرطق (٢ — ٥) ولكن يبدو أن ميوله البروتستنتية اقتصرت على الإنسانيين من البروتستنت دون غيرهم . ولقد تبع إرزمس فى إعجاب . ولكنه لم يمل إلى لوثر إلا فى اعتدال . وقد صدف فى اشمئزاز عن جزمية كالفن وغلوه . كان يتسامح فى كل شىء إلا عدم التسامح . وكان كجميع الإنسانيين إذا أكرهوا على الاختيار يؤثر الكاثوليكية بأساطيرها وعدم تسامحها وفنونها . على البروتستنتية بقدريتها وعدم تسامحها ونقائها . وكثيراً ما أكد إيمانه بالعقائد الأساسية فى المسيحية ، ولكن لعل هذا كان من قبيل الحصافة فى رجل كان على استعداد فى سبيل الدفاع عن آرائه لأن يلقى عقاب الحرق دون سواه . ولقد أحب تعريفه لله حباً جعله (أو جعل من أكل كتابه) يعيده غير مرة (٣ — ١٣ ، ٥ — ١٤٧) . ويبدو أنه آمن بخلود النفس

(٢ — ٨ ، ٤ — ٢٧) ، ولكنه آثر بوجه عام حديث الموضوعات الداعرة على حديث الأخرويات . ولقد اتهمه فاريل بالارتداد لأنه قبل وظيفة كاهن مودون(٣٥) . ولكن هذا القبول كما فهمه واهب الوظيفة ومتلقيها على حد سواء لم يكن سوى سبيل إلى الرزق .

أما إيمانه الحقيقي فكان بالطبيعة . ولعله فى هذه الناحية كان لا يقل عن جيرانه المحافظين إيماناً وسذاجة . لقد آمن بأن قوى الطبيعة تعمل للخير فى النهاية ، ولم يقدر حيادها نحو الناس والحشرات على السواء حق قدره . وكان كروسو ، وعلى النقيض من لوثر وكالفن ، يؤمن بطبيعة الإنسان الخيرة ، أو يثق كغيره من الإنسانيين بأن التعليم الجيد والبيئة الطيبة كفيلان بجعل الإنسان خيراً . وقد نصح الناس كما نصحهم مونتينى بأن يتبعوا الطبيعة ، ولعله كان ينظر بعدم اهتمام خبيث بما قد يحدث عندها للمجتمع والحضارة . وقد يبدو فى وصفه لدير تيليمى مبشراً بالفوضى الفلسفية ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ؛ فهو لا يسمح بدخول الدير إلا لمن يؤهله حسن تربيته وتعليمه وإحساسه بالشرف لامتحانات الحرية .

لقد كانت « الينتاجرويليه » فلسفته النهائية . وعلينا ألا نخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة بنتاجرويليون . التى تعنى عشباً مفيداً ليس فى حقيقته غير القنب . وفائدته النهائية أنه يصلح لصنع أربطة رقبة مناسبة للمجرمين . أما البنتاجرويلية فهى العيش على طريقة بنتاجرويل فى عشرة لطيفة متسامحة مع الناس والطبيعة ، وفى استمتاع شاكر بكل طيبات الحياة ، وفى تقبل بشوش لما يصيبنا من تقلبات ومن نهاية لا مفر منها . وقد عرف رابليه هذه البنتاجرويلية مرة بأنها « ضرب من فرح الروح كامن فى احتقار أحداث الحياة » (٤ — المقدمة) . وهى تجمع بين فلسفات الرواقى زينون ، والكلبى ديوجين . والفيلسوف أبيقور :

وخلاصتها تحمل كل الأحداث الطبيعيةبرباطة جأش . والنظر دون تضرر إلى جميع الحوافز والعمليات الطبيعية ، والاستمتاع بكل لذه سليمة دون كبت ديني متزمت أو تبكيت لاهوتى للضمير . لقد كان بنتاجرويل « يتقبل كل شيء برضى ، ويفسر كل فعل بأحسن نية . لا يناكد نفسه ولا يزعجها . . . لأن كل ما تحويه الأرض من متاع . . . لا يساوى أن تضطرب من أجله عواطفنا أو تختل ، وأن نفكر أو نخير بسببه حواسنا أو أرواحنا » (٣ — ٢) . ويجب ألا نبالغ فيما تحويه هذه الفلسفة من عنصر أبيقورى ، فخمريات رابليه لفظية أكثر منها كحولية ، وهى لا تنسجم تماماً مع ما وصفه به أحد معاصريه من أنه رجل « طلق المحيا لطيف الوجه هادئه »(٣٦) . أما الخمر الذى احتفى به فهو خمر الحياة . إن هذا الأمير المزعوم لمدمنى الخمر يضع على فم جارجانتوا عبارة تصوغ فى بضع كلمات تحدى العصر الذى نعيش فيه «إن العلم بغير ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس » . (٢ — ٨) .

ولقد اعتزت فرنسا برابليه أكثر من اعتزازها بأى من عمالقة القلم فيها باستثناء مونتينى وموليير وفولتير . ووصفه إتيين باسكييه الذى عاش فى قرنه بأنه أعظم كتاب العصر . وحين تصلبت عادات المجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر تحت المخرمات والباروكات . وطغت الأشكال الكلاسيكية ، فقد رابليه بعض مكانته فى ذاكرة الأمة ، ولكن حتى فى تلك الفترة اعترف موليير وراسين ولافونتين بتأثرهم به ، وأحبه فونتينيل ، ولابروبير ، ومدام دسفنيه . وانتحل باسكال تعريفه لله . أما فولتير فقد بدأ باحتقار جلافته ، وانتهى بالولاء له . وحين تغيرت اللغة الفرنسية استعصى فهم رابليه على القراء الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولعله اليوم أكثر شعبية فى البلاد الناطقة بالإنجليزية منه فى فرنسا . ذلك أن السر نومس أوركهارت نشر فى ١٦٥٣

و١٦٩٣ ترجمة للجزئين الأول والثالث صاغها فى إنجليزية قوية لا تقل حيوية وتدفقاً عن الأصل الفرنسى . ثم أكمل بيتر دموتيه الترجمة فى ١٧٠٨ ، وبفضل جهود هذين الرجلين أصبح جارجانتوا وبنتاجرويل من عيون الأدب الإنجليزى . ولقد سرق منه سويفت كأنما يسنند إلى حق انتمائه إلى الاكليروس . ولا بد أن ستيرن وجد فى الكتاب خميرة لسخريته اللاذعة . إنه أحد الكتب التى لا تنتمى إلى أدب بلد بعينه بل إلى الأدب العالمى . .

٦ — رونسار وجماعة البلياد (النجوم السبعة) Péiade

كان فيض غامر من الشعر يتدفق خلال هذه الفترة على فرنسا . وقد وصل إلى علمنا أسماء نحو ٢٠٠ شاعر فرنسى لمعوا إبان حكم فرانسوا الأول وأبنائه . ولم يكن هؤلاء الشعراء أصواتاً جوفاء تصرخ فى برية لا تعبأ بهم ، بل مقاتلين يخوضون معركة أدبية — معركة الشكل ضد المضمون . ورونسار ضد رابليه — قررت طبيعة الأدب الفرنسى حتى عصر الثورة .

ولقد ألهمتهم حماسة معقدة . فهم من ناحية يتوقون إلى مباراة اليونان والرومان فى نقاء الأسلوب وكمال الشكل . ومنافسة كتاب السونيتات الإيطاليين فى رشاقة الكلام وجمال الأخيلة ، ولكنهم من ناحية أخرى مصممون على ألا يكتبوا باللاتينية كالأدباء الذين علموهم وأثاروا حماستهم ، بل بلغتهم القومية وهى الفرنسية . وهم فى الوقت ذاته يريدون أن يلينوا ويهذبوا هذه اللغة التى ما زالت خشنة ، وذلك بتعليمها الألفاظ والعبارات والتراكيب والأفكار التى سرقوها بحكمة من الآداب الكلاسيكية . وافتقار رواية رابليه إلى الشكل المحدد ، بما يتخللها من أحداث عرضية ، جعلها فى نظرهم إناء خشناً من الطين شكل باليد على عجل ثم أعوزه

الطلاء والصقل . لذلك اعتزموا أن يضيفوا إلى حيوة رابليه « الأرضية » ضبطاً للشكل المصمم بعناية ، وللشعور الخاضع لحكم العقل .

وبدأت الحملة الكلاسيكية فى ليون إبان حياة رابليه نفسه . فقد أنفق موريس سيف جانباً من حياته فيما خاله تحديداً لموقع قبر لورا حبيبة بترارك ، ثم كتب ٤٤٦ مقطعاً شعرياً لحبيبته ديلى . ومهد الطريق أمام رونسار بفضل ما تميز به شعره من رقة حزينة . وكان أقدر منافسيه فى ليون امرأة تدعى « لويز لابيه » راحت وهى مدججة بسلاحها الكامل تقاتل كأنها جان دارك أخرى فى بربنيان . ثم هدأت ثائرتها بزواجها من صانع حبال أغضى — على طريقة الفرنسيين اللطيفة — عن غرامياتها الجانبية . كانت تقرأ اليونانية واللاتينية والإيطالية والإسبانية . وتعزف على العود عزفاً ساحراً . وتحتفظ بصالون لمنافسيها وعشاقها . وقد كتبت بضع قصائد من أسبق وأروع ما كتب من سونيتات فى اللغة الفرنسية . ويحسبنا للحكم على شهرتها أن نستشهد بجنازتها (١٥٦٦) التى قال مؤرخ إخبارى أنها « كانت انتصاراً . فقد حمل نعشها مخترقاً المدينة ووجهها مكشوف ورأسها مكلل بتاج من الزهور .لقد عجـــز الموت عن أن يشوهها . وجلال أهل ليون قبرها بالزهور والدموع » .(٣٧) وعن طريق شعراء ليون هؤلاء انتقل الأسلوب والمزاج البترارکيان الى باريس ودخل إلى جماعة البلياد .

وكلمة البلياد ذاتها صدى يردد الكلاسيكية . ذلك أن إسكندرية القرن الثالث قبل الميلاد كان فيها كوكبة من شعراء سبعة أطلق عليهم هذا الاسم مأخوذاً من الثريا التى خلدت ذكر بنات أطلس وبليون الاسطوريات . على أن رونسار ، ألمع نجوم البلياد الفرنسى . قل أن استعمل هذا اللقب ، وكانت نماذجه التى حاكاها هى أناكريون ! وهوراس

لا ثيوقريطس أو كاليماخوس الإسكندريان . وفى ١٥٤٨ التقى فى فندق صغير بتورين بيواكيم دبلليه Du Bellay ، واتتمر معه على توجيه الشعر الفرنسى صوب الكلاسيكية وضما إلى مشروعهما أربعة شعراء شبان آخرين هم : أنطوان دباييف ، وريمى بيللو ، وإتيين جوديل ، وبونتيس دتيار ، ثم انضم إليهم أيضاً الأديب جان دورا الذى كان لمحاضراته عن الأدب اليونانى فى كلية فرنسا وكلية كوكيريه الفضل فى تأجيج حماستهم للشعراء اليونان الغنائيين . وأطلقوا على أنفسهم لقب البريجاد (اللواء) وأقسموا أن ينقذوا ربة الشعر الفرنسى من أيدى جان دمونج ورابليه الخشنة ، ومن بحور فيون ومارو المفككة . وكانوا يشمئزون من لغة جارجانتوا وبنتاجرويل الصاخبة وحكمتهما المستترة ، ولم يروا أى ضابط كلاسيكى فى تلك الأفعال والنعوت المختلطة ولا فى تلك التدفقات البذيئة ، ولم يجدوا فيها أى شعور بجمال شكل المرأة أو الطبيعة أو الفن . ولاحظ أحد أعدائهم من النقاد أنهم سبعة شعراء ، فأطلق عليهم لقب « البلياد » . ولكن انتصارهم جعل من هذا اللقب ناراً على علم .

فى ١٥٤٩ أذاع الشاعر دبلليه البرنامج اللغوى لهذه الجماعة فى كتابه « دفاع عن اللغة الفرنسية وجلاء لها » . فأما الدفاع فقد قصد به أن فى الاستطاعة تمكين الفرنسية من التعبير عن كل ما عبرت عنه اللغات القديمة ، وأما الجلاء فقصد به أن فى استطاعة الفرنسية أن تكتسب بريقاً جديداً ، وأن تصقل ذاتها وتجلو نفسها بنبذ الكلام الخشن الذى يسود النثر الفرنسى ، والأغانى الشعبية ، والقصائد القصيرة المتكررة اللازمات ، والألوان القديمة من الشعر الفرنسى ، وأن تجدد وتثرى ذاتها باقتباس العبارات ودراسة الأشكال الكلاسيكية ، كما توجد فى أناكريون وثيوقراطيس وفرجيل وهوراس وبترارك . ولا غرو فقد أصبح بترارك فى نظر جماعة الشعراء السبعة كاتباً كلاسيكياً ، وغدت السونيت أكمل الأنماط الأدبية قاطبة .

أما « بيير رونسار » فقد حقق فى شعره تلك المثل التى أعرب عنها دبلليه فى نثره الرائع . وهو سليل أسرة خلعت عليها النبالة مؤخراً . فقد كان أبوه رئيس خدم فرانسوا الأول . وعاش بيير حقبة من حياته فى البلاط الملكى الفخم . وكان تابعاً للدوفن فرانسوا . ثم لمادلين التى تزوجت جيمس الخامس ملك إسكتلنده . ثم مرافقاً للأمير الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الثانى . وكان يصبو إلى المشاركة فى المغامرات الحربية . ولكنه ابتلى بالصمم وهو بعد فى السادسة عشرة . ومن ثم فقد أخذ سيفه وجرد عوضاً عنه قلمه . والتقى بشعر فرجيل صدفة . فرأى فيه كمالا فى الشكل واللفظ لاعهد لفرنسا به . وأخذ دوريه بيده فانتقل به من اللاتينية إلى اليونانية ، وعلمه قراءة أناكريون واسخيلوس وبندار وارستوفان . وصاح به الفتى « سيدى ! لم أخفيت عنى هذه الكنوز طوال هذا الزمن ؟ »(٣٨) وحين بلغ الرابعة والعشرين التقى بالثائر دبلليه . ومن ذلك التاريخ وزع وقته باخلاص بين الأغانى والنساء والخمر .

وقد أكملت « قصائده الغنائية Odes » (١٥٥٠) هذه الثورة الغنائية . وكانت تقليداً صريحاً لهوراس . ولكنها أدخلت هذا اللون فى الشعر الفرنسى ، ووقفت القصائد على قدميها سواء فى نقاء اللغة أو جمال العبارة أو إحكام الشكل . وبعد عامين اتخذ بترارك نموذجاً له فى ١٨٣ قصيدة من السونيتات التى نشرها فى ديوانه « غراميات » وبلغ فيها من الرشاقة والصقل ما لم يبزه أحد قط فى الشعر الفرنسى . وكان يكتب ليتغنى الناس بشعره ، وقد لحنت له قصائد كثيرة فى حياته . بعضها لحنه كبار الموسيقيين أمثال جانكان وجوديميل . وكان فى قصائده يغرى النساء اللاتى يتغزل فيهن بتلك الدعوة القديمة ، دعوة الاستمتاع بالحياة ما دام حسنهن مضيئاً ، ولكنه حتى فى هذا الموضوع القديم راح يعزف نغمة أصيلة . كتنبيهه فتاة حذرة إلى أنها ستندم يوماً ما لأنها فوتت فرصة الغواية من

شاعر شهير مثله . يقول : « حين يتقدم بك العمر كثيراً . إذ تجلسين في المساء إلى المدفأة تتحدثين وتخيطين على ضوء شمعة ، ستنشدين قصائدي وتقولين في عجب : لقد أذاع رونسار اسمي يوم كنت جميلة . عندها لن يكون من بين خدمك الذين يسمعون بنبأ كهذا — حتى ولو بعث طنين المناسج النوم إلى أجفانهم — من لا يفيق وهو يسمع اسمي ليباركك على ما حظيت به من مديح خالد . عندها سأكون راقداً تحت الثرى ، شبحاً بلا عظم ، ثاوياً تحت الآس . وستكونين يومها عجوزاً قد احدودب ظهرها وهي جالسة إلى المدفأة ، وستأسفين على حبي وعلى ازدرائك الفخور . فاستمعي إلى وعيشي الآن دون انتظار لغد . واقطفي منذ اليوم ورود الحياة » .

وكانت عظمة الأسلوب تليق ببلاط كاترين دمديتشي التي جلبت معها إلى فرنسا حاشية إيطالية حملت بتراثها فيما حملت من كتب . وما لبث الشاعر الحديد — بمشيته المختالة برغم ما مسه من صمم ، وبقوامه العسكري وشعر رأسه ولحيته الذهبي ، ووجهه الشبيه بوجه هرمز كما وصفه براكسيتيليس — أن أصبح أثيراً لدى كاترين ، وهنري الثاني ، ومارى ستيوارت ، بل وإليزابث ملكة إنجلترة التي أهدته خاتماً من الماس بوصفها ابنة خاله السابعة عشرة . ووجدت أسطورة البلياد اليونانية الرومانية ترحيباً ، وحين تحدث الشعراء عن أوليمبوس قدر البلاط لهم هذه التحية .(٣٩) فهنري هو النظير لجوبيتر ، وكاترين هي المقابل لجونو ، أما ديان فهي ديانا ، وأكدت هذا التشابه التماثيل التي نحتها المثال جوجون .

وبعد موت هنري واصل شارل التاسع مصادقة رونسار ، دون أن تسفر هذه الصداقة عن نتيجة طيبة . ذلك أن الملك الشاب كان يبغي أن ينظم له الشاعر ملحمة عن فرنسا تطاول ملحمة الاينيادة . وكتب الملك المغفل يقول : « أستطيع أن أعطي الموت ، أما أنت فتستطيع أن تعطي

الخلود(٠) . » وبدأ رونسار نظم « الفرنسيادة » المنشودة . ولكنه ألفى ربة شعره أقصر نفساً من أن تجرى هذا الشوط الطويل . وما لبث أن أقلع عن المحاولة المزعومة . وعاد إلى غنائياته وحبه . وقضى أيامه فى دعة وسلام حتى أدركته الشيخوخة وهو فى مأمن من ضجيج الدنيا . محافظاً فى السياسة والدين دون ما خطر . مكرماً من شباب الشعراء . محترماً من الجميع إلا من الموت . وقد وافته منيته فى ١٥٨٥ ودفن فى تور ، ولكن باريس منحته جنازة أولمبية مشى فيها كل أعيان العاصمة ليسمعوا أسقفاً يرتل « قصيدة جنائزية » .

أما الشعراء الذين خلعوا عليه لقب الإمارة فقد أصدروا كثيراً من دواوين الشعر . ولكنه شعر ميت برغم رقته . وكان أكثرهم كسيدهم وثنيين يعلنون كثلكتهم المحافظة حين يروقهم إعلانها . ويختفون الهيجونوت المتزمتين ، وكانوا أرستقراطيين كبرياء . ودما أحياناً . وإن خوت جيوبهم ، يكتبون لدائرة من القراء أتيح لها من الفراغ ما يكفى للاستمتاع بالشكل . ورد رابليه على خصومتهم بالسخرية من حذلقتهم ، ومن تقليدهم الوضيع للبحور والعبارات والنعوت اليونانية والرومانية ، ومن ترديدهم التافه للموضوعات القديمة وللأخيلة والمراثى البتراركية . وفى هذا الصراع بين المذهبين الطبيعى والكلاسيكى تقرر مصير الأدب الفرنسى . فأما شعراء فرنسا وكتاب مآسيها المسرحية فآثروا الطريق المستقيم الضيق ، طريق البناء الكامل والجمال المنحوت الدقيق . وأما كتاب النثر فقد استهدفوا إمتاع القراء بقوة مادتهم دون سواها . ومن ثم بات الشعر الفرنسى قبل عصر الثورة عصياً على الترجمة . فأنت لا تستطيع تحطيم إناء الشكل ثم إعادة صبه فى قالب أجنبى . على أن هذين النهرين التقيا فى فرنسا القرن التاسع عشر . وامتزج نصفا الحقيقة . واقترن المضمون بالشكل ، وعقد اللواء للنثر الفرنسى .

٧ — وايات وصـــرى

مر التأثير الإيطالى بفرنسا وبلغ إنجلتره ، لا فيضا دافقا بل نهراً ينطلق إلى البحر بمخارج كثيرة . فالعلم والدرس اللذان شغلا جيلا ألهما الأدب فى الجيل التالى ، وأصبح وحى اليونان والرومان المقدس إنجيل النهضة . ففى عام ١٤٨٦ مثلت مسرحيات بلوتوس فى إيطاليا ، ثم انتقلت سريعاً إلى بلاطى فرانسوا الأول وهنرى الثامن المتنافسين . وفى عام ١٥٠٨ افتتحت مسرحية كالاندرا للكاتب بيينا عهد الملهاة الكلاسيكية المكتوبة باللغة الوطنية فى إيطاليا . وفى عام ١٥٥٢ بدأت المأساة الكلاسيكية المكتوبة بالفرنسية فى فرنسا بمسرحية جوديل « كليوبطره أسيرة » ، وفى عام ١٥٥٣ أخرج نيكولاس أودال أول ملهاة إنجليزية ذات شكل كلاسيكى ، قال ناقد عنها «إن مسرحية رالف رويستر دويستر تشم فيها رائحة بلوتس»(٤١). وهذا حق ، ولكنك تشم فيها أيضاً رائحة إنجلترة ، ورائحة هذه الفكاهة القوية التى كان شكسبير مزمعاً أن يقدمها للدهماء من رواد المسارح الإليزابيثية .

وتجلى التأثير الإيطالى فى أروع صوره فى الشعر إبان حكم أسرة تيودور . كان أسلوب العهد الوسيط لا يزال حياً فى بعض القصائد الشعبية الجميلة مثل « العذراء غير السمراء » (١٥٢١) ، ولكن حين انصرف الشعراء الذين أظلهم الملك الشاب هنرى الثامن برعايته إلى قرض الشعر اتخذوا بترارك وأشعاره الغنائية « الكانزونيرى » مثلا يحتذونه . وقبل ارتقاء إليزابيث العرش بسنة واحدة نشر رتشرد توتل ، أحد الطباعين اللندنيين ، كتاباً سماه « منوعات » كشفت فيه قصائد رجلين من رجال البلاط البارزين عن انتصار بترارك على تشوسر ، وانتصار الشكل الكلاسيكى على فيض خماسة العهد الوسيط . أما أول الرجلين ، وهو السر توماس وايات Wyatt فقد قام برحلات كثيرة إلى فرنسا وإيطاليا بوصفه دبلوماسياً

فى خدمة الملك ؛ وجاب معه بعض الإيطاليين ليعاونوه فى تهذيب أصحابه وتمدينهم . ولقد أحرق أصابعه بنار الحب كما يخلق برجل بلاط أصيل يعيش فى عصر النهضة . وفى رواية أنه كان واحداً من عشاق آن بولين الأوائل . وأنه سجن فترة قصيرة حين أرسلت إلى برج لندن(٤٢). وقد ترجم أثناء ذلك سونيتات بترارك ، وكان أول من ضغط الشعر الإنجليزى فى تلك الصورة المحكمة .

فلما مات وايات بالحمى وهو يعد فى التاسعة والثلاثين (١٥٤٢) تلقى القيثارة من يده شاعر رومانسى آخر من بلاط هنرى يدعى هنرى هوارد (إيرل أف صرى Surrey) . وتغنى صرى فى شعره بمفاتن الربيع ، وأنحى باللوم على الصبايا العازفات عن حبه ، وأقسم ليكونن وفياً إلى الأبد لكل منهن بدورها . وقد ولع بالمغامرات الليلية فى لندن ، وقضى فى السجن فترة عقاباً له على تحديه غريماً فى مبارزة ، وقدم للمحاكمة جزاء أكله اللحم فى الصوم الكبير ؛ وحطم بعض النوافذ بقوسه العابثة . وقبض عليه ثانية ، ثم أفرج عنه . وأبلى فى الحرب على أرض فرنسا بلاء حسناً دفاعاً عن وطنه إنجلتره . ولما عاد راح يداعب فكرة ارتقاء العرش الإنجليزى على مسمع من الناس ، فحكم عليه بالشنق وانتزاع أحشائه وتقطيعه أرباعاً ، واكتفى من ذلك كله بضرب عنقه (١٥٤٧) .

كان الشعر ترفاً عارضاً وسط حياة صرى العنيفة . وقد ترجم بعض أجزاء من الإنيادة ، وأدخل الشعر المرسل فى الأدب الأنجليزى ، وخلع على السونيت الشكل الذى استخدمه شكسبير فيما بعد . وقد وجه إلى أحد شعراء الرومان أنشودة رعوية حزينة تتغنى بحياة الريف الرتيبة وما يشيع فيها من سلام وطمأنينة ، ربما حين توقع أن مسالك المجد الذى لا حق لصاحبه فيه قد تورده موارد الحتوف . « أى مارتيال ، إليك الأشياء التى ألفيتها مفضية إلى الحياة السعيـــدة : الزهد فى المال الذى لا يكسب بالعرق ،

والأرض المثمرة . والفكر الهادىء . والصديق الكفؤ لصديقه ، لا بغضاء ولاشحناء ، لا تغيير فى السلطة ولا فى الحكومة ، حياة سليمة خلت من المرض ، وأسرة متصلة الأجيال ، وطعام بسيط لا ترف فيه ، وحكمة صادقة مقرونة بالبساطة ، وليل خلا من كل هم ، لا تستبد فيه الخمر بالعقل ، وزوجة وفية لا تلج فى النقاش ، ونوم يزجى الليل ، ورضى بما ملكت يداك . لا تخشى الموت ولا تخاف صولته » .

٨ — هـانز زاكس

فى القرن الذى تلا مقالات لوثر تاه العقل الألمانى فى جدل المائة عام الذى مهد لحرب الثلاثين عاماً . وبعد عام ١٥٣٠ توقف نشر الكتب الكلاسيكية القديمة إلى حد كبير ، وقل عموماً عدد الكتب المنشورة ، وحل محلها سيل من الرسائل الجدلية . فراح راهب فرنسسكانى اسمه توماس مورنر ذو قلم حاد يسوط الناس يمنة ويسرة بسلسلة كتيبات عن الأوغاد أو الحمقى (طائفة الأوغاد ، مجمع الحمقى) . . . وكلها منقول بتوسع من كتاب برانت **Narrenschiff** سفينة الحمقى(*) * . وكثير من الحمقى الذين هاجمهم مورنر كانوا من رجال الكنيسة ، وفى البداية ظنه الناس لوثرياً ، ولكنه أعلن أن لوثر « كلب صيد متوحش ، ومارق مجنون ، غبى ، مجدف »(٤٣) . فوصله هنرى الثامن بمائة جنية .

أما سبستيان فرانك فكان أنبل من صاحبه وأصفى معدناً : وكان كاهناً فى أوجزبورج حين أقبلت حركة الإصلاح البروتستنتى ، فرحب بها ثورة جريئة تمس إليها الحاجة ، وأصبح بعد ذلك قسا لوثرياً

(*) نقل الكسندر باركلى مثل هذا عن برانت فى كتابه « سفينة الحماقات » (١٥٠٩) مضيفا اليه طعنات من عنده .

(١٥٢٥) ، وبعد ثلاث سنوات تزوج من أوتيلى بهام ، وكان آخوها من القائلين بتجديد العماد ، فعطف على هذه الطائفة المضطهدة ، وندد بالتعصب اللوثرى ، فطرد من ستراسبورج ، واحترف صناعة الصابون فى أولم ليكسب قوته ؛ وسخر من تحكم النبلاء الألمان فى سلامة العقيدة ، فقال : « إذا مات أمير فأدخل خليفته مذهباً آخر ، أصبح هذا المذهب للتو كلمة الله »(٤٤) ، « تتسلط على جميع الناس اليوم غيرة مجنونة تزعم أننا يجب أن نؤمن ، . . أن الله إلهنا وحدنا ، وأنه لا جنة ولا إيمان ولا روح ولا مسيح إلا فى مذهبنا » . أما إيمانه فكان الالوهيـــة الكونية التى لا توصد باباً ، « إن قلبى ليس غريباً عن أى إنسان . فلى إخوة بين الترك والبابويين واليهود وجميع الشعوب(٤٥) » . وكان يتوق إلى « مسيحية ، ، ، حرة لامذهبية . . . لا يقيدها أى شىء خارجى ، حتى ولا الكتاب المقدس(٤٦) . وأقصته أولم هى الأخرى إذ صدمتها هذه المشاعر التى لا تليق بجيله ، فعمل طباعاً فى بال ، وهناك مات شريفاً برغم فقره (١٥٤٢) .

ثم انغمس الشعر والدراما الألمانيان فى اللاهوت انغماساً أفقدهما صفة الفن وأحالهما بعض أسلحة القتال ؛ وفى هذه الحرب استحل الكتاب كل جعجعة وجلافة وفحش فى القول . ولو أنك استثنيت الأغانى الشعبية والتراتيل لما وجدت للشعر أثراً إلا فى وابل من طلقات القوافى المسمومة . ولم تعد الجماهير تتذوق مسرحيات القرن الخامس عشر الدينية التى يتفق على إخراجها بسخاء ، فحلت محلها مهازل شعبية تتهكم باوثر أو بالبابوات ؛

على أن ألمانيا لم تعدم بين الحين والحين رجلا يطفو فوق هذا الحقد والعنف ليرى الحياة كلا متكاملا ؛ ولو أن هانز زاكس استمع إلى قضاة نورمبرج لظل صانع أحذية كما كان ؛ ذلك أنه حين نشر تاريخاً منظوماً لبرج بابل دون أن يحصل على الإذن المدنى بطبعه ، صادروا الكتاب

وأكدوا لصاحبه أن الشعر ليس ميدانه ما فى ذلك ريب . وأمروه أن يلتزم قوالب أحذيته(٤٧) . ولكن هانز كان يتمتع ببعض الحقوق التى نالها بفضل مروره بالمراحل العادية التى أهلته لأن يصبح رئيس فرقة المغنين . ولعل المفارقة التى تبدو لنا فى كونه حذاء وشاعراً تلتفى إذا لاحظنا أن نقابة الغزالين والحذائين التى انتمى إليها كانت تمارس بانتظام الغناء الكورالى ، وتعزف فى حفلات موسيقية عامة ثلاث مرات فى السنة . وخلال النقابة ، وفى أية مناسبة أخرى ، كان زاكس يكتب الأغانى والتمثيليات فى مثابرة وجد كأنه يلوك فى فمه مسامير أحذيته .

وعلينا ألا نحسبه شاعراً عظيماً ، فما هو إلا صوت عاقل مبتهج يعلو وسط قرون من الكراهية . وكان شغله الشاغل هم البسطاء من الناس لا العباقرة ، وتمثيلياته كلها تقريباً تدور حول هؤلاء . بل إن الله نفسه يبدو فى هذه التمثيليات أحد العامة الخيرين ويتكلم كما يتكلم قسيس الناحية . وبينما راح معظم الكتاب يتبلون صحائفهم بالمرارة أو التبذل أو فحش القول ، كان هانز يصور ويمجد فضائل المحبة والواجب والتقوى والوفاء الزوجى والحب الأبوى والبنوى . وقد بدأ بنشر قصائد (١٥١٦) . تستهدف « زيادة الثناء على الله والتحدث بمجده » و « مساعدة إخوانه على أن يحبوا حياة التوبة »(٤٨) . وظلت هذه الروح الدينية تبعث الدفء فى كتاباته إلى النهاية . وقد نظم نصف الكتاب المقدس ، مستخدماً نص الترجمة التى قام بها لوثر ، وحياه هانز ولقبه بـ « بلبل فتنبرج » الذى سينقى الدين ويرد الفضيلة . « استيقظوا ؛ استيقظوا ؛ فقد بزغ الفجر ، وهأنذا أسمع فى الغابات أنشودة تتردد . إنه البلبل العظيم تصدح موسيقاه فوق السهل والجبل . هاهو الليل يتلاشى فى الغرب ، والصبح يطلع من الشرق ، والفجر يقبل فيطرد غيوم الليل المنصرم »(٤٩) .

وأصبح زاكس الآن شاعراً ملحمياً لحركة الإصلاح البروتستنتى ،

وراح يندد بأخطاء الكاثوليك فى إصرار ساخر . فكتب التمثيليات عن الأوغاد من الرهبان ، وأرجع قبيلتهم إلى الشيطان ، ونشر مسرحيات كاريكاتورية ساخرة وهزليات تعرض على سبيل المثال كاهناً يغوى فتاة أو يتلو القداس وهو مخمور . وفى ١٥٥٨ نشر «تاريخاً منظوماً للبابة جوانا » — وهى قصة خرافية تقبلها معظم الوعاظ البروتستنت على أنها تاريخ . ولكن هانز نددد باللوثريين أيضاً ، ورماهم بالتناقض الفاضح بين حياتهم وعقيدتهم . « إنكم معشر اللوثريين جلبتم على الإنجيل أشد الاحتقار بسبب نهمكم للحم ، وضجيجكم الصاخب ، وذمكم للكهنة ، وشجاركم وسخريتكم وسبابكم وغير ذلك من مظاهر سلوككم الشائن(٥٠) . » وشارك الكثيرين فى الحزن على ما شاب الجيل من جرى وراء الكسب وفساد فى الخلق .

ونحن إذا استثنينا فكرة فاجنر المثالية ، وجدنا على الجملة أن هانز زاكس ربما كان الممثل للرجل الألمانى الطيب برغم ما يشوبه من فجاجة وجلافة ، والذى لا بد كان أغلبية فى الجنوب على الأقل . ونحن نراه سعيداً فى بيته ، مترنماً بشعره طوال أربعين عاماً . ولما ماتت زوجته الأولى (١٥٦٠) تزوج وهو فى الثامنة والستين من حسناء فى ربيعها السابع والعشرين ، وظل ينعم بالحياة برغم هذه المحنة . ولا بد لنا من إنصاف عصر ومدينة مكنا حذاء من أن يصبح فى ظلهما أديباً إنسانياً ، وشاعراً ، وموسيقياً ، وأن يقتنى مكتبة كبيرة ويستعملها ، وأن يتعلم الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية ، وأن ينظم ٦٠٠٠ قصيدة ، وأن يعيش متمتعاً بقسط لا بأس به من الصحة والسعادة حتى وافته المنية وقد بلغ الثانية والثمانين .

٩ — ربه الشعر الإيبيرية ١٥١٥ — ٥٥

كانت هذه فترة مفعمة بالنشاط والحيوية فى أدب البرتغال . ذلك أن حافز الاكتشاف المثير ، والثروة المنتشرة بفضل التوسع فى التجارة ، والتأثير الإيطالى ، والأدباء الإنسانيين فى كويمبرا ولشبونه ، والرعاية التى بسطها بلاط مثقف — كل هذا تضافر لإحداث ازدهار سيبلغ ذروته فى « اوزيادات » كاموينز (١٥٧٢) ؛ ونشبت معركة مرحة بين « المدرسة القديمة » — مدرسة جل فيتشنتى الذى تعلق بالموضوعات والقوالب القومية ، ومدرسة أبناء القرن الخامس عشر (ويقابله عندنا السادس عشر) الذين اتبعوا صادى مراندا فى تحمسه للنماذج والأساليب الإيطالية والكلاسيكية . قد ظل جل فيتشنتى — وهو « شكسبير البرتغالى » — طوال أربعة وثلاثين عاماً مهيمناً على المسرح بفصوله التمثيلية البسيطة . . . ورضى البلاط عنه ، وتوقع منه إحياء كل حادث ملكى بمسرحية ، وحين دب الشقاق بين الملك والبابا ، سمح لجل بأن يهجو البابوية فى غير تحرج حتى قال الياندر بعد أن شاهد إحدى هذه التمثيليات فى بروكسل « ظننتنى فى قاب سكسونيا أستمع إلى اوثر »(٥١) . وكان هذا الكاتب المسرحى الخصب يكتب تارة بالإسبانية ، وتارة بالبرتغالية ، وتارة بكلتيهما ، متخللا كتاباته بنتف من الإيطالية والفرنسية واللاتينية الكنسية والعامية الريفية . وكثيراً ما كان يقطع حركة المسرحية — كشكسبير — بأشعار غنائية تتسلل إلى قلوب الشعب . وكان جل كشكسبير ممثلا كما كان كاتب تمثيليات ومديراً للمسرح ومشرفاً على تنظيم مكان وزمان المشاهد المسرحية ، وكان إلى ذلك من خيرة صاغة الذهب فى جيله .

وفى ١٥٢٤ عاد فرانشسكو صادى مراندا من إيطاليا بعد أن قضى فيها ست سنوات وجلب معه الحمى الكلاسيكية التى أتت بها النهضة . وكما

فعل رونسار وجماعة البلياد فى فرنسا ، وسبنسر وسدنى فى إنجلترة . رأى مراند أن يضفى الكرامة والوقار على الأدب القومى بصوغ موضوعاته وبحوره وأسلوبه على غرار القوالب الكلاسيكية . وقد سلك بترارك فى عداد الكلاسيكيين — شأنه فى ذلك شأن يواكيم دبلليه — وقدم السونيت لمواطنيه . وكما فعل جوديل ، كتب مراندا أول مأساة كلاسيكية بلغته القومية (١٥٥٠) ، وكان من قبل (١٥٢٧) قد ألف أول ملهاة نثرية برتغالية ذات شكل كلاسيكى . أما صديقه برناردیم ريبرو فنظم شعراً ريفياً بأسلوب فرجيل ، وعاش مأساة على طريقة تاسو ، فقد أثار بغرامه باحدى نساء البلاط ضجيجاً عالياً انتهى بنفيه من وطنه ، ثم عفى عنه ورضى عنه مليكه ، وأخيراً مات مجنوناً (١٥٥٢) .

وقد سجلت مدرسة من المؤرخين تنبض كتبهم بالحياة الانتصارات التى أحرزها المستكشفون . ومن هؤلاء المؤرخين كاسبار كوريا الذى ارتحل إلى الهند وارتقى فى السلم الوظيفى حتى أصبح أحد سكرتيرى ألبوكيرك ، ونقد بفساد الموظفين الحكوميين ، ثم قتل فى ملقا فى ١٥٦٥ . وقد ألف إبان هذه الحياة النشيطة ، فى خمسة مجلدات ، كتاباً سماه « خلاصة موجزة » للفتح البرتغالى للهند . مفعماً بالأوصاف البهية التى اتسم بها عصر التوسع هذا . أما فرناو لوبيس دى كاستانهيدا فقد قضى نصف حياته فى الشرق ، وأنفق جهداً امتد عشرين عاماً فى كتابة « تاريخ لكشف البرتغال وفتحها للهند » . أما جواو دى باروس فقد شغل عدة وظائف إدارية فى « بيت الهند » بلشبونه على مدى أربعين عاماً ، وأخجل سلفه بزهده فى جمع المال . وكانت المحفوظات والسجلات جميعها فى متناوله ، فألف بينها فى تاريخ اكتفى بتسميته « آسيا » ولكن الكتاب اكتسب اسماً آخر هو « العقود » لأن ثلاثة من مجلداته الأربعة الضخمة تناول كل منها فترة عشر سنوات تقريباً . والكتاب فى ترتيبه ودقته

ووضوحه يثبت للمقارنة بأى مؤلف تاريخى معاصر له باستثناء أعمال مكيافللى وجويتشارديني . ولو أخذ رأى أمته الفخورة لأنكرت هذين الاستثنائين ، فقد خلعت على بازوس لقب « ليثى البرتغالى » :

كانت اللغة القشتالية قد أصبحت اللغة الأدبية لأسبانيا . وعاشت اللهجات الجليقية والبانسية والكتلونية والأندلسية فى الحديث الدارج ، وأصبحت اللهجة الجليقية اللغة البرتغالية ، ولكن استخدام القشتالية لغة للدولة والكنيسة أيام فرديناند وإيزابيللا وكسيمينيس ارتفع بهذه اللهجة إلى مقام لا يضارع ، ومنذ ذلك العهد إلى يومنا هذا كان رنينها القوى الأداة المعبرة عن أدب أسبانيا . وقد أبدى بعض كتاب هذا العصر ولعاً باللغة . فضرب أنطونيو دى جيفارا المثل فى البحوث اللغوية والمحسنات البلاغية ، وقد أعانت ترجمة اللورد بيرنرز لكتاب جيفارا « مزولة الأمراء » (١٥٢٩) على صياغة ذلك التأنق اللفظى الذى يتسم به كتاب جون لايلى Euphues واللعب السخيف بالألفاظ الذى نلحظه فى كوميديات شكسبير الأولى .

وتغنى الأدب الأسبانى بالدين والحب والحرب . وبلغ الولع بروايات الفروسية مبلغاً حمل مجلس النواب الأسبانى فى ١٥٥٥ على أن يوصى بحظرها قانوناً . وقد صدر هذا المرسوم فعلا فى أمريكا الإسبانية ، ولو أنه نفذ فى أسبانيا لكان من الجائز أن نحرم من دون كخوته » . ومن بين الروايات التى أبقى عليها الكاهن أثناء تنقيته لمكتبة « الفارس » رواية ألفها جورجى دى مونتيمايور تدعى Dian enamorata (١٥٤٢) ، وهى تقليد لرواية « أركاديا » التى كتبها الشاعر الأسبانى الإيطالى ساناتزارو (١٥٠٤) ، وقد قلدها هى الأخرى السر فليب سدنى فى قصة أركاديا (١٥٩٠) ، ورواية مونتيمايور النثرية الشعرية مثال من مئات الأمثلة على تغلغل النفوذ الايطالى فى الأدب الأسبانى . وهنا أيضاً نرى المغلوب

وقد غلب غالبيه . وترجم جوان بوسكان « Cortigiano » لكاستليونى نثراً لا يقل روعة عن الأصل ، ووافق على اقتراح الشاعر البندقى نافاجيرو بتعميم شكل السونيت فى أسبانياً .

وللتو تقريباً ارتقى صديقه جاركيلازو دى لافيجا بالسونيت إلى مرتبة الكمال فى اللغة القشتالية . وكان ككثيرين من كتاب هذه الفتره الأسبان سليل أسرة عريقة ، إذ أن أباه كان سفيراً لفرديناند وإيزابللا فى روما . وقد ولد جاركيلازو بطيلطلة عام ١٥٠٣ ، ونذر للجندية منذ صباه . وفى ١٥٣٢ أبلى أحسن البلاء فى رد الترك عن فينا ، وفى ١٥٣٥ جرح مرتين جراحاً خطيرة فى حصار تونس ، وبعد ذلك بشهور شارك فى حملة شارل الخامس الفاشلة على بروفانس . وفى فريجى تطوع بأن يقود هجوماً على قلعة تعرقل تقدم الجيش ، وكان أول المتسلقين لسور القلعة . فتلقى ضربة على رأسه قضت عليه بعد أيام وهو فى الثالثة والثلاثين . وفى إحدى قصائده السبعة والثلاثين التى تركها لصديقه بوسكان تسمع نغمة تتردد فى كل الحروب : يقول « والآن أصابت اللعنة أشد ما أصابت جيلنا هذا ، وكل ما مضى يتغير من سيء إلى أسواء ، وأحسن كل منا وطأة الحرب — حرب تتلوها حرب ، ونفى وأخطار ورعب ... وكلنا سئم فى صميم نفسه من رؤية دمه مراقاً على رمح وهو حى لأن الرمح لم يصب هدفه . وقد فقد بعض القوم بضاعتهم وكل متاعهم ، وذهب كل شيء ، حتى اسم المنزل والأسرة والزوجة والذكرى . وما جدوى هذا كله ؟ أبعض الشهرة ؟ أم شكران الأمة ؟ أم مكان فى التاريخ ؟ سيكتبون يوماً كتاباً ، وعندها سنرى »(٥٢) .

ولم يعش ليره ، ولكن مئات الكتب خلدت ذكره فى إعزاز كبير . وسجل المؤرخون موته باعتباره أحد أحداث عصره الكبرى . وطبعت أشعاره فى مجلدات سهلة التداول حملها الجنود الأسبان فى جيوبهم

إلى عديد من الأقطار . ولحن الموسيقيون الأسبان شعره قصائد غنائية . وأحال كتاب المسرحيات حوار قصائده الرعوية تمثيليات .

أما المسرحية الأسبانية فتوقفت عن الحركة . ولم تدر أنها عما قليل ستكون قريباً للمسرحية الإليزابيثية . وكانت الملهاة ذات الفصل الواحد ، والحزليات الناقدة ، والفصول المأخوذة من الروايات الشعبية . يمثلها الممثلون الجوالون فى الميادين العامة أو فى أفنية الفنادق الصغيرة . وأحياناً فى مقر أمير أو بلاط ملك . وقد حقق لوبى دى رويدا . الذى خلف جل فيتشنتى باعتباره أهم مورد للفصول التمثيلية لهذه الفرق . لنفسه الشهرة . وأعطانا لفظاً جديداً . بمهرجيه (البوبو) .

وكثر عدد المؤرخين . وعين شارل الخامس جونزالو فرنانديز دى أوفيدو مؤرخاً رسمياً للدنيا الجديدة . وأنجز عملا متوسط الجودة هو تأليف كتاب ضخم سيىء الترتيب سماه « التاريخ العام والطبيعى لجزر الهند الغربية » (١٥٣٥) . وقد أثرى خلال الأعوام الأربعين التى قضاها فى أمريكا اللاتينية بفضل التنقيب عن الذهب . وساءه كتاب « قصة خراب جزر الهند » (١٥٣٩ وما بعدها) الذى فضح فيه بارتلمى دلاس كازاس الاستغلال القاسى للعمال الوطنيين المستعبدين فى المناجم الأمريكية . وكان لاس كازاس قد أبحر مع كولمبوس فى ١٥٠٢ . وأصبح أسقفاً لكيابا بالمكسيك . وكرس حياته كلها تقريباً للدفاع عن قضية الهنود الحمر . وقد وصف فى «مذكراته» التى وجهها للحكومة الإسبانية السرعة التى يموت بها الوطنيون فى ظروف العمل الشاقة التى فرضها عليهم المستعمرون . فقال إن الهنود لم يألفوا غير العمل الخفيف بسبب حرارة مناخهم وبساطة طعامهم . ولم يستخرجوا الذهب من مناجمهم بل قنعوا بأخذه من سطح الأرض أو من قيعان

الجداول الضخلة ، ولم يستعملوه إلا حلية . وقد قدر لاس كازاس أن السكان الوطنيين لجزر الهند تناقصوا من ١٢,٠٠٠,٠٠٠ (وهو رقم مغالى فيه ولا ريب) إلى ١٤,٠٠٠ فى ثمانية وثلاثين عاماً(٥٣) . وانضم المرسلون الدومنيكان والجزويت إلى لاس كازاس فى الاحتجاج على هذا الرق الهندى(٥٤) ، وكانت إيزابللا لا تفتأ تندد به(٥٥) . ووضع فرديناند وكسيمينيس شروطاً رحيمة بعض الشىء لتجنيد العمال الهنود(٥٦) . ولكن تعليمات هؤلاء السادة بشأن معاملة الوطنيين كانت تلقى الإهمال فى أغلب الأحيان أثناء استغراقهم الشديد فى شئون السياسة الأوربية .

وقام جدل صغير حول فتح المكسيك ، ذلك أن فرانشسكو لويز دجومارا كتب يروى قصة هذا السطو الظالم فى انحياز شديد لكورتيز . واحتج برنال دياز ديل كاستيللو على الرواية بأن ألف فى ١٥٦٨ « التاريخ الحقيقى لفتح إسبانيا الجديدة » وفيه دان كورتيز على اختصاصه نفسه بكل مفاخر الفتح ومكاسبه دون أن يترك إلا أقل القليل للجنود البواسل من أمثال برنال ، هذا مع ثنائه على كورتيز بما يستحقه ؛ والكتاب يستهوى القارىء لأنه يزخر بشهوة الحركة وبهجة الانتصار والدهشة البريئة مما كانت ترفل فيه مكسيك الأزتكة من ثراء وترف ؛ يقول « حين شاهدت ما أحاط بى من مناظر قلت لنفسى هذه جنة الدنيا » ثم يضيف « وهذا كله دمر » (٥٧) .

وقد نسبت أنضج المؤلفات فى تاريخ إسبانيا . وأشهر رواية إسبانية كتبت فى هذه الفترة ، إلى كاتب واحد ، اسمه دجو أورتادو دى مندوزا ولد بغرناطة بعد أن فتحها فرديناند بنحو أحد عشر عاماً . وكان أبوه قد ظفر بالمجد لحسن بلائه فى حصارها . فعين حاكماً للمدينة بعد سقوطها ؛ وتلقى الفتى علومه فى سلمنقة ، وبولونيا ، وبادوا ، فحصل ثقافة عريضة فى اللاتينية واليونانية والعربية ، وفى الفلسفة والقانون ، وراح

يجمع النصوص الكلاسيكية بحماسة أمير من أمراء النهضة ، وحين أراده سليمان القانونى أن يحدد المكافأة التى يختارها جزاء خدمات معينة أداها للباب العالى ، لم يطلب سوى بعض المخطوطات اليونانية . وقد حظى بمكانة مرموقة خلال خدمته الدبلوماسية لشارل الخامس فى البندقية وروما ومجمع ترنت ، ولما وبخه البابا بولس الثالث على حمله رسالة جافة من شارل إلى البابا ، أجاب بكل كبرياء النبيل الأسبانى : « إننى فارس ، وكان أبى فارساً قبلى ، وبهذا الوصف أرى أن واجبى يقتضينى أن أصدع بأوامر سيدى الملك ، دون أن يساورنى أى خوف من قداستكم ، ما دمت أراعى واجب التبجيل لنائب المسيح. إننى خادم لملك أسبانيا . . وما دمت ممثلا له فأنا فى مأمن حتى من سخط قداستكم »(٥٨) .

وتتشكك الأبحاث الحديثة فى صحة نسبة أول رواية بطلها متشرد (Picaresque) فى الأدب الأوربى لمندوزا . واسم الرواية « حياة ومغامرات لازاريللو دى تورميس » . ومع أنها لم تطبع إلا عام ١٥٥٣ فالراجح أنها كتبت قبل ذلك بأعوام كثيرة . ومما يثير الغرابة أن سليلا لأسرة لا تفوقها فى النبالة إلا الأسرة المالكة يختار لصاً ليكون بطلا لقصة ، وأشد غرابة أن رجلا ربى فى صباه ليكون قسيساً يهجو رجال الدين هجوا لاذعاً خمل محكمة التفتيش على حظر أى طبعات جديدة من الكتاب قبل تنقيته من جميع الشوائب المؤذية(٥٩) . ولازاريللو(*) هذا صبى متشرد يتعلم حيل السرقات الصغيرة أثناء اشتغاله قائداً لمتسول مكفوف ، ثم يرتقى إلى جرائم أكبر حين يعمل خادماً لكاهن ، ثم لراهب ، ثم لقسيس كنيسة خاصة ، ثم لناظر زراعة . ثم لبائع متجول لصكوك

(*) ومعناها « لمازار الصغير » ، اشارة الى لعازر المسكين الوارد فى انجيل لوقا الاصحاح ١٦ ، ثم أصبح « متسولا صغيرا » ثم صبيا يقود شحاذا أعمى .

الغفران . ولكن حتى هذا اللص الشاب ، المتمرس بشئون هذه الدنيا . تروعه بعض الغرائب التى لجأ إليها بائع صكوك الغفران المتجول ترويجاً لبضاعته . يقول « يجب أن أعترف أننى — ككثيرين غيرى — كنت مخدوعاً وقتها فحسبت سيدى آية فى القداسة »(٦٠). وقد أدخلت هذه الرواية المرحة « أسلوب المتشرد » gusto picaresco فى القصص . وابتعثت عدداً لا يحصى من الروايات المقلدة لها ، والتى بلغت الذروة فى أشهر قصص التشرد ، وهى جيل بلا (١٧١٥ — ٣٥) لمؤلفها ألين لساج Lesage .

واعتكف مندوزا فى غرناطة بعد أن نفى من بلاط فيليب الثانى لأنه جرد سيفه فى جدل بينه وبين غريم ، وهناك نظم أشعاراً خفيفة فيها من التحرر ما حال دون طبعها وهو حى ، ثم روى قصة ثورة المغاربة فى ١٥٦٨ — ٧٠ فى « تاريخ حرب غرناطة » فى نزاهة وإنصاف للمغاربة حبسا هذا الكتاب أيضاً عن النشر ، فلم يتيسر طبعه إلا فى ١٦١٠ . ولم يطبع منه وقتها غير جزء واحد . واتخذ مندوزا من صالوست مثلا يحتذيه ولكنه تفوق عليه ، وسرق من تاسيتوس موضوعاً أو اثنين . ولكن يمكن القول على الجملة ان كتابه كان أول مؤلف أسبانى تجاوز مجرد السرد الإخبارى أو الدعاية إلى التاريخ الواقعى المفسر بادراك فلسفى . والمعروض بمهارة أدبية . ومات مندوزا عام ١٥٧٥ وهو فى الثانية والسبعين . وكان من أكثر الشخصيات تكاملا فى عصر حفل بالرجال المتكاملين .

فى هـــذه الصفحات العجلى يدخل الضمير دائماً فى سباق مع الزمن . وينبه القلم المستعجل إلى أنه ، كالمسافر المسرع ، إنما يمس السطح فقط . فكم من ناشرين ومعلمين وعلماء وأدباء ورعاة للعلم وشعراء ورواتيين وثوار متهورين جاهدوا نصف قرن لينتجوا هذا الأدب الذى ضغطناه

فى هذه الصفحات . كم من روائع أغفلنا اسمها ، وأمم ضربنا صفحاً عن ذكرها . وأشخاص كانوا يوماً فى عداد العباقرة الخالدين أهملناهم إلا من كلمات معدودات ! ولكن لا حيلة لنا فى هذا . فالمداد ينضب ، ويجب قبل نضوبه أن نقنع بما يسفر عنه رشاشه وخطوطه من صورة غائمة لرجال ونساء يتخففون برهة من عناء اللاهوت والحرب . ويحبون أشكال الجمال كما يحبون سراب الحقيقة والقوة ، يبنون الألفاظ وينحتونها ويصورونها — إلى أن يجد الفكر فنا يكسوه ، وتمتزج الحكمة بالموسيقى . وينهض الأدب ليتيح لأمة أن تتكلم ، ولعصر أن يصب روحه فى قالب شكّل فى شغف كبير ليصونه الزمن نفسه وينقله خلال مئات الكوارث تراثاً للبشرية :